القسم الأول

صور من البطولة
فى العصر القديم

فى سهل مجدّو

تحتمس الثالث

كان من المألوف عند أمراء مصر القديمة أن يهب بعضهم نفسه لخدمة الدين ، فيعتزل الدنيا ، ويزهد فى ما يخلعه المُلك عليه من ترف وجاه ، وينتظم فى سلك كهان أحد المعابد ، ليقضى أيامه كاهناً صغيراً كغيره من صغار رجال الدين .

وكان تُحتمس ـ الذى ارتقى العرش فيما بعد باسم تحتمس الثالث ـ أحد أولئك الأمراء الذين نذروا أنفسهم منذ صباهم الباكر لخدمة المعبود آمون . وكانت هذه الخدمة تعتبر فى نظرهم لوناً من ألوان الاستعداد للمُلك إذا سنحت له سانحة ، لأن الملك عندهم كان الكاهنَ الأعظم ، ولم يكونوا يتصورون مَلكاً لا تزينه هذه الصلة بالدين .

ومضى تحتمس الصبى يخدم المعبود آمون فى رضا واطمئنان ، وكان أبعد شىء عن أن يخطر بباله هو ارتقاؤه ذلك العرش الذى استوى عليه فيما بعد ، لأن أمه إيزيس لم تكن زوجاً رسمية شرعية لأبيه تحتمس الأول .

وفى يوم من أيام الأعياد ، وبينما هو جالس مع بعض الكهنة فى قاعة الأعمدة الشمالية بساحة أبيه تحتمس الأول فى معبد آمون ، إذ ترامت إلى سمعه أصوات الكهنة يرتلون ، وكان بعضهم قد حملوا تمثال آمون وجعلوا يطوفون به فى أرجاء المعبد وفقاً للطقوس . وكأنما حلَّت روح آمون فى التمثال ، فجعل يتحرك ويسير بالكهنة من مكان لمكان كالذى يبحث عن شىء ، فما راعه إلا اتجاه التمثال نحو مجلسه ، ووقوفه أمامه لا يتحول أو يريم ، فوثب من مجلسه فرمى بنفسه عند قدميه ، فمد التمثال يده إليه فأنهضه ، ثم أخذ بيده وسار به حتى وصل إلى « المقعد الملكى » بالمعبد ، فرفعه إليه وأجلسه عليه .

وكان أبوه تحتمس الأول مايزال على عتبة المعبد ، بعد أن أدى عبادته المعتادة لآمون ،

فلم يكد الكهنة يحملون إليه النبأ حتى أشرق وجهه ، وأقبل يشتد فى خطوه نحو ابنه ، ولم يكد يرى المعبود يباركه حتى تهلل فرحاً ، وأقبل يعفر وجهه بتراب آمون ، ثم ضم ابنه إليه وثبته على العرش ، وخلع عليه ألقاب المُلك وشاراته ، وأعلن إلى من حوله أنه يعتزل العرش من تلك اللحظة ، تاركاً إياه لمن اختاره آمون بنفسه ...

وكان تحتمس الأول شيخاً كريماً ، قضى أيامه يرتب شئون الدولة بعدما أصابها من أذى الهِكْسُوس ، فأثار اعتزاله العرشَ رنة أسى بين رعيته أجمعين ، ولكنهم تفاءلوا جميعاً بمقدم ابنه ، لأن آمون شرفه باختياره ، ولا يختار آمون إلا من يرضى عنه ويتوسم فيه البركة والخير.

أما الفرعون الفتى فكان جميلاً ظاهر الفتوة ، تقياً لا يكاد يقصر فى شىء من واجبات العبادة ، ومازال منذ ملك يقيم المعابد ويصلح ما وهى منها ، وهو إلى ذلك ذكى لا يكاد يخفى عليه من أمور الدولة شىء ، محارب لا يشق له فى الميادين غبار ، مؤثر لصالح الناس على صالح نفسه حتى لينساها فى سبيل الآخرين ! .

ولقد ساس الأمور بدهاء وكرم ، فقد نازعته حتشبسوت ـ أخته لأبيه ـ هذا الحق الذى وهبه إياه الإله ، وانضم إليها نفر من أنصارها ، وكاد الأمر ينتهى إلى فتنة ، ولكنه لم يحاربهم ولم يصر على أن يستبد بالأمر ، ونزل عن حقه فى العرش لأخته التى كانت فى الوقت نفسه زوجته ، ورضى بأن يكون شريكها فيه لا أكثر .

وكانت حَتْشِبْسوت امرأة ذكية معجبة بنفسها ، فلم تزل كل يوم تعدو على حق من حقوق تحتمس حتى لم يعد أحد يسمع به إلى جنبها ، وكان فى تصرفه هذا صبوراً عاقلاً كريما ، فقد كان يعرف أنها أسن منه ، وأنها امرأة ، وأن من حقها أن تستمتع بنصيبها من أبهة الملك قبل أن يتقدم بها الزمان .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فإن الملك القصير الأمد تحتمس الثانى بن تحتمس الأول ، كان فى أول الأمر رجلاً ضعيفاً خاملاً لا يكاد أحد يحسب له حساباً ، فلما تحسن حاله بعض الشىء ووجد أخته تستبد بالعرش استفاقت مطامعه ، فمضى يستعين بأبيه تحتمس الأول ـ وكان قد انفرد بنفسه للعبادة بعد نزوله عن العرش لتحتمس الثالث ـ ومازال به حتى شد ساعده وطلب له المُلك من أخته حتشبسوت وأخيه تحتمس الثالث ، فلم يتردد

تحتمس الثالث فى أن يتخلى عنه لأخيه العليل ، بل أقنع أخته وزوجته حتشبسوت بذلك وبهذا خلا العرش لهذا المسكين الضعيف ، فاستمتع به لحظة ثم مضى إلى حيث يمضى كل الناس .

وعاد تحتمس الثالث وحتشبسوت إلى العرش ، فعادت هذه سيرتها الأولى ، واستبدت بكل شىء ، وكان تحتمس يثق فى حسن سياستها واقتدارها فترك لها الأمر ، وكان ناصحها ومستشارها « سِنْمُوت » أستاذاً له فى الصغر ، فاستحيى تحتمس أن ينازع أستاذه الأمر . والحق أن حتشبسوت ورجالها كانوا من خيرة من عرفتهم بلادنا حسن إدارة وقدرة على سياسة الأمور ، ولقد استطاع « جابوسْتِب » وزيرها العظيم ورئيس كهنة آمون ، أن يدبر الأمور أحسن تدبير ، وأن ينهض بكل ما عهد إليه به من تبعات الدولة الجسام .

ثم انقضى ذلك كله : مضت حتشبسوت هى أيضاً إلى حيث يمضى كل الناس وتفرق أنصارها ، وعاد تحتمس الثالث إلى القوة والسلطان بعد اثنتين وعشرين سنة من التضحية والإيثار ، عاد إلى القوة بعد هذا العمر الطويل من الخبرة والتأمل ، عاد كأتم ما يكون الملوك نضجاً والرجال خبرةً والفراعين سياسةً وكياسةً ...

وكانت حتشبسوت قد صرفت همها كله إلى البناء والتعمير والتجميل ، شأنها فى ذلك شأن كل امرأة تعتلى العرش : يكون أول ما يشغلها شئون السلم والرخاء ، وقد كان فى هذا خير كبير لبلادنا ، لأن الهكسوس كانوا قد خرَّبوها تخريباً شديداً ، وكان لابد من جهد كبير لتعمير البلاد وإعادة الرخاء إلى أرجائها . وكانت حتشبسوت خير من يقوم بهذا ، لأنها كانت سلطانة عظيمة تعشق الجمال والأبهة والزينة والتعمير والرفاهية ، وربما لو قد استبد تحتمس الثالث بالأمر من دونها لما التفت إلى شىء من ذلك ، لأنه كان محارباً لا يعدل بالحرب والميادين شيئاً ...

تولى هذا الفرعون الجليل فى وقت كانت ظروف الدولة كلها تتطلب قيامَه على العرش فقد كانت أملاك مصر فى آسيا تتهددها الأخطار لطول ما تغيب جنودها عنها . وكان أهل آسيا قوما محاربين أشداء لابد من تَوَلِّيهم بالغزوات حتى يخضعوا ويلينوا ، وكانت مصر لاتستطيع أن ترفع يدها عن تلك المناطق الواقعة بين حدودها ونهر الفرات ، فقد كان

أهل هذا الإقليم قبائل لا تألف النظام ولا تعرف السكون ، ولا تزال تتطلع بعين الطامع إلى جنان مصر ورياضها الزاهرة وخيرها الكثير ، شأنها فى ذلك شأن النوبيين فى الجنوب والليبيين فى الغرب ، فكان لابد لمصر من أن تداوم على حربهم ، وأن تكون على الأهبة للقائهم ، وإلا عدوا عليها وخربوها كما فعل الهكسوس .

فى هذه الظروف تولى تحتمس الثالث ... ولم يكن أحد ليتصور أنه قائد ماهر لم تنجب مصر إلى يومه محارباً أمهر منه ولا أقدر ؛ وسنجتزىء هنا من الجهاد الرائع الذى سجلته له الأيام بالحديث عن حملته الكبرى لإخضاع الثائرين على مصر بزعامة أمراء بلاد ميتانى شرقى الفرات .

كانت أمة الميتانى حاقدة على مصر متخوفة سلطانها ، وقد بذل فرعون مصر جهده فى التودد إلى أهلها محاولاً كسبهم إلى جانبه ، ولكنهم أصروا على الأذى ، ومازالوا يغرون شعوب الشام ويؤلفون بينها حتى استطاعوا تكوين حلف مركزه قادش ، وما أن تم لهم ذلك ، حتى بدأوا يدفعون الحلف على الكيد لمصر وتهديد مصالحها ...

ولم يكن جيش مصر إذ ذاك بالكبير ، لأن إهمال شئون الحرب أيام حتشبسوت هبط به وأشاع الاضطراب فى نظامه أعواماً متوالية ، فلما نهض تحتمس للغزو بدأ يعد الجيش وينظمه ، ولم يكن أمامه من الوقت متسع للاستكثار من الجند ، فجعل همه تدريب العشرين ألفا الذين يتكون منهم جيشه تدريباً كاملاً دقيقاً ، حتى لقد كانوا يشعرون عند خروجهم من مصر أنهم ـ بفضل النظام وحسن الاستعداد ـ يعدلون مئات الألوف .

غادر الجيش مصر مع الربيع (١٩ أبريل سنة ١٤٧٩ ق . م) وأسرع فى السير فوصل إلى غزة فى تسعة أيام ، ووافق وصوله إليها يوم الذكرى الثانية والعشرين لانتخاب آمون لتحتمس فرعوناً على مصر على النحو الذى وصفناه ، واقتصر فرعون فى الاحتفال بهذه الذكرى على حفل بسيط نهض الجيش فى صباحه فسار محاذياً ساحل البحر الأبيض المتوسط ، واخترق سهل شارُون ، وعسكر فى سفح جبال الكَرْمِل بعد أن قطع مسافة طويلة من غير أن يشعر بشىء كثير من الجهد أو التعب ، وذلك بفضل ما أبداه فرعون من القدرة والخبرة والجلَد ، فقد كان يسير فى مقدمة جيشه كأى واحد من أفراده ...

وكان العصاة قد تجمعوا أثناء ذلك يقودهم ملك قادش ، وتحصنوا فى حصن مجدّو على المنحدر الشمالى لجبال الكرمل ، ولم يلبث فرعون أن استبان أن خصمه ملك قادش خبير بالحرب ذو بصر بشئونها ، ولهذا تخير هذه المدينة الحصينة التى تقع بين سلسلتى جبال الكرمل ، وتهيمن على الطريق المؤدى من مصر إلى وادى الفرات .

وعقد فرعون مجلساً من كبار ضباطه ، ومكث وإياهم ساعات طويلة يتداولون فى أحسن خطة يمكن انتهاجها ، وكانت هناك طرق ثلاث تؤدى إلى هذه المدينة : اثنتان طويلتان مأمونتان ، والأخرى قصيرة محفوفة بشىء من الخطر . ونصح الضباط باتباع إحدى الطريقين الطويلتين التماساً للأمان ، ولكن فرعون كان أبعد منهم بصراً ، فقد كان الوقت أهمَّ من الأمان فى نظره فى هذه اللحظة ، لأن العدو كان يجمع قواته ، وكانت أعمال تحصينه سائرة فى جد ، فاستحسن فرعون أن يسرع فيفجأه على غرة ، ويشتت قواه قبل أن تتجمع وتشتد . وكان القواد المصريون يخشون وثوب العدو على الجيش واعتراضه له فى مخارم الجبل الضيقة ، وطالت المناقشات وبدأت أخبار اختلاف الآراء تصل إلى أسماع الجند ، فجعل الكهنة المرافقون للجيش يصلون لآمون أن يلهم فرعون الرأى الصحيح . وإذا بفرعون يخرج إلى جنده فيخاطبهم فى حنان الأب الرءوف ، وحزم القائد المجرب قائلاً: « أى جنودى البواسل ، سأسير أمامكم لأدلّكم على الطريق .. فاتبعوا خطاى ولا تخشوا بأساً ! » .

وملأت بسالة فرعون قلوب جنده ثقة ، فمضوا فى صف طويل يلاحق بعضهم بعضاً مخترقين المضايق والخوانق ، يطوون اليوم واليومين وهم سائرون لا ينال من نفوسهم خوف ولا يدركهم تعب . ولم تكد مقدمة الجيش تصل إلى نهاية الممر الجبلى الضيق ، وتشرف على سهل جِزْرِيل حتى لقيها فريق من الأعداء ، ما كاد فرعون يراهم حتى انقض عليهم بحفنة من أبطاله ، فما هى إلا ساعة حتى بددهم وفرقهم بين قتيل وأسير . ثم أفضى إلى السهل فمضى بجيشه على مهل ليتيح لجنده أن يريحوا أجسامهم من وعثاء التوقل والانحدار فى تلك الجبال القاسية . ولم يكد الليل ينتصف حتى كان يضرب معسكره على مرأى من مجدو، وتحمست نفوس الجند واستعدت للقتال ، فأمرهم فرعون أن يستريحوا ، فمالوا بجنوبهم إلى الأرض ساعاتٍ حتى طلع النهار ...

ومن غرائب المقادير أن ملكَ قادش وأصحابه حسبوا أن فرعون مصر آت إليهم من الطريق الطويلة التى تمر بمدينة طآخ ، فضربوا معسكرهم على هذا الطريق وأقاموا ينتظرونه ، فلو أن فرعون استمع لنصح قواده للقيه الأعداء على مبعدة من عاصمة ملكهم وربما حدث مالا تحمد عقباه ، فأما وقد سار فى الطريق الضيق فقد باغتهم ونزل على مقربة من عاصمتهم وهم بيعدون عنها . ولم يكد النهار يطلع حتى استيقظ فرعون وجنوده كالأسود الضارية ، وإذا فرعون على ظهر جواده يعبىء قواه ويصفها للمعركة الحاسمة ، متنقلاً به من ناحية لناحية وقد ارتفعت هامته وعلت وجهه بشائرُ النصر ، ومن حوله قواده أسودُ الوغى يكاد كل منهم يتعجل الوقت شوقاً إلى القتال والتضحية فى سبيل وطننا المصرى العزيز ..

وجعل فرعون جيشه جناحين وقلباً ، فكان الجناح الأيمن كتلةً من البواسل يحصنون جانبهم بتَل يقع جنوبى غدير كينا ، وكان الجناح الأيسر يسير كتلةً متراصة من المشاة والرماة وراكبى العجلات الحربية ووجهته مجدو على مسافة قصيرة ، أما القلب فكان يقوده فرعون وكانت مهمته شد أزر الجناح الأيسر المهاجم .

ولم يكد أهل مجدو يرون ذلك حتى اندفعوا فى الفجوة بين الجناح الأيسر والقلب ، يريدون أن يفصلوا جناحنا هذا عن بقية الجيش لينفردوا به ، وفاتهم أن فرعون ينتظر هذه الفرصة ، فما هو إلا نفذت طلائعهم فى هذه الفجوة حتى كر عليهم فرعون بعجلته الحربية المتألقة ومن خلفه خيرة جنده فشطرهم شَطراً . وباغتتهم هذه الحركة وساد صفوفهم الذعر، ومضى فرعون وجنوده يعملون فيهم الحراب والنبال ، ومضت عجلاته ـ ولا مثيل لها فى الدنيا ـ تفرى جندهم فريا، وأخذ من أفلت من القتل منهم يتراجع نحو مجدو ، واستطاع أن يدخل أسوارها منهم مَن استطاع ، وأقفلت أبواب الحصن ، فأخذ الباقون يتسلقونه على حبال أدلاها لهم مواطنوهم . وكان فى استطاعة جند فرعون أن يقتحموا الحصن فى تلك الساعة ، لولا أن الإجهاد كان قد نال منهم ، فانصرفوا عن ملاحقتهم ، وأخذوا يجمعوا الغنيمة العظيمة التى خلفها المنهزمون فى الميدان .

وخاف فرعون أن يفوت الوقت والجند مشتغل بالأسلاب ، فأصدر أمره بالهجوم على

مجدو ومحاصرتها . وكان كل الملوك الثائرين قد لجأوا إليها ، فاشتدت رغبة فرعون فى الاستيلاء عليها للقضاء على أعدائه جملة ، وخاطب جنده قائلاً : « لو مضيتم فى الهجوم واستوليتم على هذه المدينة ، لقدمت اليوم قرباناً عظيماً للإله رع ... » وكان فى هذا النداء كفاية ، فقد امتلأت النفوس حماسة وفاضت القلوب رغبة فى إنفاذ ما أمر فرعون ، فترك الجند ما فى أيديهم ، وطوقوا المدينة بسور من الشجر الأخضر ، وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، وعاهدوا فرعون على أن يقوموا على هذا الحصار حتى يستسلم البلد ومن فيه .

وأقام المصريون على الحصار خمسة أسابيع متوالية ، كان يتبادل القيام به فريق منهم بعد فريق ، وأعانهم على الاستمرار فيه ما كانوا يصيبونه من خيرات السهل المحيط بالبلد . أما أهل مجدو فقد أجهدهم الحصار ، ونفذت أقواتهم ، وأخذت الدلائل تدل على أنهم مسلمون بلدهم بين لحظة وأخرى ، ولم يكن يمنعهم من ذلك غير الخوف من انتقام فرعون. فلم يكد فرعون يعلم بذلك حتى عجب منه وقال لرسلهم : « ننتقم منكم ؟ كيف » إن رحمتنا تسعكم ، لأنكم تصبحون من رعايانا ! » فدهش القوم وقالوا : « فأنتم إذن لستم كأهل آشُور ... إذا استسلم لهم بلد خربوه وقتلوا أهله وطمسوا معالمه ؟ » ... فقال فرعون: « لا ... لسنا كأهل آشور ... إنما نحن مصريون فينا عطف ورحمة » .

فلم يكد أهل البلد يتسامعون بذلك حتى طلبوا من وفدهم أن يستغفر فرعون ويرجوه أن يقبل البلد وأهله رعية مخلصة طيعة ، قال رجالهم : « اسمح لنا ياذا الجلالة أن نقدم لك الجزية اللازمة ! » ثم رجوه أن يبقى على حياتهم ، فرد جلالته قائلاً : « سمحَت لكم عظمتى أن تبقوا أحياء ... ! » ، فكان ذلك من دلائل رحمة فرعون المظفر ، ولو غيره مكانه ما غفر ولا رحم ، ولَوضَع السيف فى الناس والنارَ فى البلد حتى أحالهم وأحالها هشيماً تذروه الرياح ...

ولكن فرحة فرعون لم تتم ! إذ لم يلبث أن تبين أن ملك قادش ليس بين الأسرى ، فقد استطاع أن يفر من البلد الذى أثاره وألقى به فى النار ، فرَّ تاركاً البلد تنعى من بناها ، ومخلفاً أهلها تحت رحمة العدو ، وقد أسف فرعون لذلك ، لأنه كان يريد أن يقضى على هذا الرجل الذى أثار ذلك الشر كله .

ولم يسمع أحد بمثل الغنائم التى وقعت فى أيدى فرعون وجنده بعد هذا الانتصار العظيم فى مجدو ، فقد كان منها تسعمائة عجلة حربية ، بينها عجلتا ملكى قادش ومجدو ، وثلاثون ومائتان وألف حصان ، ومائتان من أفخم الزرود ، فيها زردا الملكين المهزومين ، ومقادير لا تحصى من آنية الذهب والفضة ، وأعداد لا حصر لها من الماشية . وبعد أن استراح الجند قليلاً أمرهم فرعونُ بأن يحصدوا الحبوب فى السهل استعداداً لسير طويل وغزو متتابع ، فاجتمعت لهم بذلك مؤونة كبرى كانت لهم فيما بعد عوناً عظيماً ...

ومضى فرعون يُخضع البلاد بلداً بعد بلد ، ويتلقى طاعة الشعوب شعباً بعد شعب ، حتى دان له سهل الشام كله ، وألقت جبال الكرمل وأهلها بيد الطاعة ، فقبل فرعون منهم ما عرضوا ، وعزل من حكامهم من شك فى ولائه لمصر ، وأقام حكاماً جدداً من أنصاره والموالين له ، واستقدم أبناءهم معه إلى مصر ، وعهد إلى المربين فى تربيتهم وتنشئتهم ، حتى يشبوا على حب مصر وينموا فى أعطاف حضارتها الباهرة ..

وعاد فرعون وجيشه المظفر إلى مصر مع الخريف ، بعد ستة أشهر من الحرب والتضحية فى سبيلها ، عاد تحدوه آلاء النصر وترفرف فوق رأسه الأعلام ، فلم يبق مصرى لم يخرج لاستقبالهم ، ولم تبق نفس لم تشرئب لتملأ عينيها من بهجة الجيش المنتصر وجلال فرعون الخالد .

كان ذلك يوماً من أيام الدنيا ، فيه أصبحت مصر سيدة العالم بأسره ، وأصبح فرعونها سيد الأرضين . من ذلك اليوم اطمأن الناس إلى عدلنا ، وسار أمرنا فى الناس بالعدل الشامل ..

شاعر الأبطال

هوميروس

لعلك صاحبته مثلى زماناً ، ولعلك استمعت إلى قصصه الساحر وشعره البديع ، ولعلك أعجبت بهذا العقل العبقرى الجليل الذى ظهر والإنسانية صبية تمشى نحو اليَفَاع، يبتسم لها الوجود ويستخفها طرب الحياة الدافقة فتتغنى بكل ما تجد ، وترسل من نفسها على السجية قصيداً حلواً ساذجاً يصور حلاوة الحياة فى ذوقها وسذاجة الإحساس فى قلبها: تتغنى بالحرب إذا سارت إلى الحرب ، وتتغنى بالحب إذا أحست لواعج الهوى ، وتنتقل من حال إلى حال والقيثارة بيدها ، تنشد آمالها وآلامها ، فيردد الدهر منشداً .

وكان هوميروس قيثارة الإنسانية الصداحة وصدى صوتها المردد ، لم يخطر ببالها خاطر إلا حوَّله إلى نشيد ، ولم يجر عليها حادث إلا استحال فى فمه إلى نغم ، ولم تكن الدنيا فى ذلك الزمان كدنيانا الراهنة : جهاداً متصلاً فى سبيل العيش وحرباً لا تخمد فى سبيل البقاء ، بل كانت سهلة ذلولا ...

كان الإغريق شعباً يتوقد حيوية وتفاؤلاً ، كان شعباً حراً جميلا ـ وكل حر جميل ـ يعيش فى أرض جميلة توحى بالحرية والجمال ، هى شبه جزيرة اليونان وآسيا الصغرى وجزائر بحر إيجه . ولم تكن هذه الأرض قد أقفرت على النحو الذى صارت إليه الآن بعد عشرات القرون من الحروب والمصائب ، بل كانت روضاً يانعاً وغابات متراصة الأشجار فى تناسق لا تبدعه إلا يد الخالق جل جلاله ، وجبالاً سوامق يتوج الثلج الناصع هاماتها ، فكان الإغريقى يعيش فى أعطافها فى جو من السحر والفتنة ، وانطبعت صورها فى خياله فأصبح لا يرى شيئاً إلا أحاله إلى سحر وجمال وفتنة ، فاتخذ له من الجبال والأنهار والرياض آلهة رسمها رسماً جميلاً خفيفاً ، وابتدع خياله لكل شىء إلهاً أو آلهة : فهذا إلـه البحر ، وتلك إلهة الصيد، وهذا إله الحب ، وتلك إلهة الجمال .

ولكنه لم يقدس هذه الآلهة ويخضع لها خضوع العابد للوثن ، بل ظل يشعر أنها من خلق خياله ، فهو يُشركها معه فى مشاعره وآلامه : وهو غيران منها حيناً ، وهى غيرى منه حيناً ، وهى تميل إلى فريق من الناس على فريق ، بل هى قد تعشق من البشر إنساناً وتمضى تطلبه وقد لا تفوز به ! وهو لهذا قد يغضب على هذه الآلهة ويكفر بها ويناصبها العداء ، ولا يزال ينازعها وتنازعه ، وقد يغلبها ! حتى أصبحنا لا نفرق فيما يَروى لنا الإغريق فى قصصهم بين إنسان وإله : فهم يزعمون لك أن فلاناً هذا هو ابـن الإلهة فلانـة ، وأن الإله فلان أبوه من البشر ! .

ذلك كله طريف جميل ، ففيه خفة وفيه دعابة ، ولكنك لا تستطيع أن تأخذه مأخذ الجد الخالص ولا تستطيع صياغته فى نثر منطقى جامد ، ولابد لك من شعر طروب تعوضك موسيقاه وأوزانه ما ينقصك من دقة المنطق ، ولا يستطيع أن يفعل هذا كل شاعر ، بل لابد من عبقرية طلقة فياضة ترسل الشعر فى يسر كأنها تتنفس . وكانت الحوادث نفسها كفيلة بأن تخلق الشاعر المجيد وتصقل خياله ، فإن حرب طِرْوادة كانت قد ثارت بين الإغريق فشغلت نفوسهم وأذهانهم ، وطال مداها وتعددت أطوارها ، وتناولها القُصاص بما قدر عليه خيالهم ، حتى أصبحت أسطورةً فيها من الفن والابتكار أكثر مما فيها من الحق والتاريخ .

وانتهى قصص القصاصين إلى هوميرُوس هذا ، وكان ذا خيال خصب وشاعرية فياضة تتحول الحياة على لسانه إلى قصيد ، ويتحول القصيد على قيثارته إلى نغم . وكانت الحياة قد حرمته نعمة البصر ، وعوضته عنها ذلك الخيال الطائف ، فأخذ ينظم قصائد طوالاً يجمع فيها شتات الحوادث فى نسق قصصى طريف . وتناول الرواة قصيده ومضوا يرددونه ويضيفون إليه على قدر ما استطاع خيالهم ، حتى تضخم القصيد واختلط فيه كلام هوميروس بكلام غيره ، واجتمع ذلك كله فى قصيدتين طويلتين هما « الإلياذة » و«الأوديسّا» تُنسبان لهوميروس .. ولا يعلم إلا الله أين كلامه فيهما من كلام غيره ، ولكن أساسهما على كل حال من صوغ خياله ولحن نشيده ، فهو أبو الشعر ورائد القصيد .

فهؤلاء الشعراء كلهم من بنيه وأحفاده ، ليس منهم إلا من أخذ عنه ودرس عليه وغذى

شاعريته من سحر بيانه وفيض عاطفته ورحاب خياله . وهؤلاء الرسامون كلهم عيال عليه وعلى أبطاله ، يأخذون منه ويثبتون على الألواح ، وينقلون عنه وحى الفكر فيسجلونه صوراً ذات ألوان . وهؤلاء الفلاسفة الأول تلاميذه ، على أضوائه كشفوا فلسفاتهم وأفكارهم التى اتخذت الدنيا منها مبادىء للحياة وأنظمة للعيش . وهؤلاء نحن بعد عشرات القرون نروى حديثه ونردد أفكاره ونعيد أشعاره ، فكأنها بنات اليوم أو نظم الأمس وكأنها الحق الذى لا يخلُق والصدق الذى لا تنال منه الأيام : تلك هى الإلياذة الخالدة ، فى كل سطر منها بطل وفى كل بيت منها بطولة ، وهى فى مجموعها ديوان الأبطال الذى لا يمل قراءته من تطلع إلى سماء الأبطال ، فلنلق نظرة فيها علّنا نقبس من جمالها شيئاً :

هذا « آخيل » فى خبائه معتكفاً مغضباً . لقد غصبه « أجاممِنُون » حبيبته الرقيقة «بْريسًا » . وهؤلاء هم اليونان فى طريقهم إلى طروادة ليثأروا من ملكها « برِيَام » وابنه «باريس » الذى اختطف منهم هيلانة الجميلة ، ولكن الآلهة لا ترضى عنهم ، وترسل إليهم من مياه البحر شراً عاصفاً لأنهم أغضبوا آخيل ! فهل رأيت ألطف من هذا الخيال الأسطورى البديع الذى يخلط الحرب بالحب والآلهة بالناس ، ويثير فى النفس صوراً ضاحكة عابسة توقظ الخيال وتملأ النفس مرحاً وطرباً ؟

إن الإله « أبولُّون » يحب آخيل لأنه ابن ثيِتس الفاتنة التى اختصم فيها إلهان هما : « زيِيُوس » سيد الآلهة و « بُوزَيْدُون » إله البحر ، ولم يدركها أحدهما ، وإنما كانت من نصيب « بيلْيُوس » كما سترى فى حديث آخيل . إن أبولون يحبه ويعجب به ، وهو لهذا لا يرضى أن يغصبه البشر حبيبته بريسا ، وينزل عن عرش ألوهيته ويمضى إلى المعركة الجارية بين البشر مناصراً لآخيل معيناً له على إدراك صاحبته ! ولم يقف « بوزيدون » ساكناً فإن آخيل عزيز عليه لأنه ابن ثيِتس التى طالما أعجب بها ، وهو يكره ذلك الغاصب أجاممنون لأنه لم يستح رغم تقدم سنه أن يغصب فتى يافعاً مثل آخيل فتاة يافعة مثل بريسا وهو لهذا يثير البحر على الإغريق ليمنعهم من أن تطأ أقدامهم أرض آسيا الصغرى وفيها طروادة ، بلد هيلانة الجميلة . ثم يمضى إلى الآلهة فيجعلها تعلن أن أول من يمس الأرض من الإغريق ميت لا محالة !

وإذ هم فى سفنهم يضطربون خوفاً ، وكل منهم يخشى أن يخطو إلى الأرض المحرمة

فيهلك ، إذا بفتى جرىء القلب منهم يرضى أن يبذل نفسه ضحية كريمة حتى لا تقول الآلهة إن اليونان ليس فيهم فتى واحد شهم يحمل رأسه على كفه ! إنه ليخطو إلى الأرض ، فإذا سهم رائش يستقر فى أحشائه ، فيسقط هاتفاً باسماً ، ولا يكاد هتافه يتردد حتى يتشجع الإغريق فينحدرون من السفن كالسهام المارقة أو السيول الجارفة : وتعجز الآلهة عن ردهم ، ويمضى الإغريق خفافاً سراعاً حتى يدركوا أسوار طروادة . وهناك تبدأ الحوادث التى تقص الإلياذة علينا من أحداثها ما وقع فى الخمسين يوماً الأخيرة منها ، تقصها فى بضعة آلاف من أبيات الشعر الجميل !

هل يوفق الإغريق إلى النصر بغير آخيل ؟ إن الأيام لتطول بهم ، وإن الهزائم لتتردد فى صفوفهم ، وإن أبطالهم ليتساقطون صرعى حتى تفزع الآلهة وتخشى عليهم العاقبة ، لأن الآلهة تحب الإغريق رغم غيرتها منهم ، وهذا هو موضع الطرافة فى هذه الآلهة الإغريقية ، فهى إغريقية دماً وروحاً ، وهى لا ترضى أن ينهزم الإغريق فى حرب ولو كانوا هم العداة الغاصبين ، وهى لا ترضى من آخيل هذا الاستمرار فى الغضب وتأبى عليه تركَ مواطنيه فى قبضة الردى من أجل امرأة ، وهى لهذا تهرع إليه ترجوه أن ينهض للحرب فيأبى ، فتوحى إلى صاحبه « بِتُرْكْلِس » أعز أصدقائه ليستعطفه ويرجوه . ولكنه يصر على الإباء ، فإذا يئس منه سأله درعه لكى يخرج بها (أى بتركلس) إلى المعمعة حتى يقع الخوف فى قلوب الأعداء ، فيرضى . ويخرج بتركلس ويصول ويجول ، ثم يبرز له « هِكْتُور » سيد أبطال طروادة ، فلا يزال يقاتله حتى يصيبه فى مقتل ويخر بتركلس ميتاً .

أحب أن تصغى معى إلى أناشيد هوميروس ، أحب أن تشاركه أحزانه على بتركلس العزيز ، إنه يرسلها على ألسنة الحور ، ويصورها بدموع الوالهات الباكيات ، فلا يكاد آخيل يسمع النشيد حتى يمتلىء قلبه حزناً على صاحبه ، وتثور نفسه حمية له ، فينتضى سلاحه ويمضى إلى الميدان معجلاً ، وهناك ترجح الكفة وترضى الآلهة عن اليونان ، ويعود النصر العزيز . فلا يلبث الطرواديون أن يعودوا إلى مدينتهم ويحتجزوا بها ، ثم يشتد بهم الأمر حتى كادوا يسلموا أنفسهم لأعدائهم .

ولكن بطلهم باريس يعرف سراً لا يعرفه غيره ، إنه يعرف أن آخيل محصن من الموت ممتنع على الفناء ، لأن أمه غمسته وهو حدث فى ماء الخلود ، ولكنها نسيت منه جزءاً لم

يمسسه هذا الماء وهو عَقِبُه ، ذلك أنها أمسكته منه حين أدلته فى الماء ، فأصبح عقبه المنفذ الوحيد الذى يصيبه منه الموت . إن باريس ليعرف ذلك ، وإنه ليتحرق شوقاً للأخذ بثأر صديقه هكتور الذى أرداه آخيل ميتاً ، فيسدد سهمه المسموم إلى عقب آخيل ، ويفوّقه ويشده ثم يرسله يحمل الموت الزؤام إليه ، وهذا آخيل يسقط صريعاً يشخب دمه ، وتتفرق نفسه وتذوب حياته ، ولكنه يبتسم للموت ويلقاه راضياً سعيداً ، وهؤلاء حوريات الخلد يستقبلنه بأناشيد عذبة فيها فرح وفيها حزن ، إنهن سعيدات بلقاء هذا البطل الكريم ، ولكنهن حزينات لمصاب قومه فيه .

وكان هوميروس يعبر عن شعور الإغريق عامة بفرق من المنشدات ، هن فى رأيه أهل اليونان ، فأناشيد المنشدات هى صوت اليونان إذن ، وحزنهن أو فرحهن هو شعور الإغريق إزاء هذه الكارثة . وعن أشعار هيرميروس هذه أخذ كتاب اليونان أسلوبهم الطريف هذا فى التعبير عن رأى الجماعة أو عن رأى الكاتب نفسه فى أحيان كثيرة ، فالجوقة عند سُوفُوكْلِيس أو يُوريبيدِيس أو أَرِيْستُوفانِيس ما هى إلا شعب اليونان نفسه .

هؤلاء هم الإغريق يطوون الحسرة بين ضلوعهم على فقدهم آخيل رغم ما وفقوا إليه من نصر على الطروادين ، وهاهم ينشرون الأشرع ، ويعودون إلى بلادهم ، وإن نفوسهم لتتفرق حسرات .

أى سحر فى هذه القطعة الفريدة التى يبلى الزمان ولا تبلى ! أى حديث حلو عذب تسمعه فى أطوائها على ألسنة الأبطال والحكماء والزعماء !

لو تلوت بضع صفحات من هذه الإلياذة أو من أختها الأوديسا ، لعرفت أى عقل هذا الذى صاغهما ونفث فيهما الخلود ، ولتبينت أنه لا يمكن أن يكون عقلاً واحداً بل هى عقول ، إنهم جيل من الشعراء ، وإنه صوت شعب كامل لا صوت رجل واحد ، إنه شعب مصوّر وعالم حى متحرك يفيض بالحيوية والنشاط والقوة والتوفز . وهذا رأى أغلب دارسى الآداب اليونانية :

إن هوميروس لم يكن رجلاً واحداً ، بل هو عَلَمٌ على عبقرية اليونان الشعرية . لقد نظم مئات من شعراء اليونان أشعارهم ونسبوها إلى هذا الاسم ، إنها عبقرية شعب اجتمعت فى اسم فرد ، إنه جهد شعراء أبطال انتهى إلى رمز شعرى واحد وتلك صفة تكاد تتصف بها

الأشعار الشعبية عند شعوب الأرض قاطبة : لا تستطيع أن تنسب قصيدة « رُولاَن » ولا قصيدة « السيِّد » ولا ملحمة « بيوولْف » ولا أشعار أبى زيد الهلالى أو قصة الظاهر بيبرس إلى مؤلف واحد ، لأن هذه القصائد والأقاصيص كلها إن هى إلا أصوات الشعوب تعبر به عن نفسها تعبيراً صادقاً ساذجاً يفيض جَداً وجمالاً .

ثم تأتى الأوديسا ، هذه القصة الساحرة التى لا ينساها فتى يقرؤها ، ولا تنساها فتاة تظهر عليها ، إنها قصة أودِيسْيُوس (أو أُلِيسِيس) ومغامراته وحبيبته بنيلوبى : لقد ذهب أوديسيوس مع غيره من أبطال الإغريق واشترك فى حرب طروادة ، ولكن سفينته ضلت سبيلها أثناء العودة واستبدت بها الأمواج فمضت به إلى حيث لم يمض أحد ، وألقت به الأمواج على شواطىء مخوفة تغص بالمهالك ، ولكن البطل يصارع الأبطال والوحوش والساحرات ، ويأتى من صور البطولة ما يثير الخيال ويبعث الإلهام ، وتنقضى الأعوام وخطيبته بنلوبى تنتظره أمينة على عهده وفية له . وإن المعجبين والمحبين والراغبين فى زواجها ليترددون على دارها عشرات يزاحم بعضهم بعضاً ، وهى تمنيهم وتعدهم بأن تنظر فى أمرهم حينما تخلص من نسجها .

وتمضى اليوم عاكفة على خيوطها وإبرتها ، فإذا أقبل الليل حلت ما عقدته وبدأت فى اليوم التالى من جديد ! .. وهكذا حتى ييأس الطامعون وينفد صبرهم من هذا النسج الذى لا يتم ! .. ويشتد بهم الغضب ويأخذون يأتمرون بالفتاة وينصبون لها الشباك ؛ فإذا أشرفوا على التنفيذ وحاق الخطر بالحبيبة ، أقبل أوديسيوس بعد الغياب الطويل ، واشتبك مع المتنافسين وأصلاهم عذاباً أليماً ، وخُتمت القصة بين أفراح الحب وأفراح الناس .

هذه نظرة عابر ، هذه خطوة سائر ، لا تمس حقيقة هذا القصص البديع إلا مساً رقيقاً ، ولا تصور خيال القطعتين إلا تصويراً بسيطاً سطحياً ، فما بالك بالأصل ؟

ألك فى قراءة حلوة تملؤك رجولة وتملأ خيالك شعراً ؟ ألك فى ساعات تقضيها مع ناس كأنهم الآلهة ، وآلهة كأنهم الناس ؟ ألك فى أستاذ يلقى إليك قصصاً حسناً وكلاماً رائعاً وعبرا صادقة ؟ ألك فى عالم من الأبطال ودنيا من الرجال ؟ ..

عليك إذن بهوميروس ، عليك بدواوينه الزاخرة وأشعاره الجميلة ، عليك بأبطاله الخالدين وآلهته العظام ، عليك بالإلياذة ثم عليك بالأوديسا ...

بطل من عالم الأساطير

آخـيـــل

كانت ثِتِس أمه من الآلهة ، وكان أبوه من الناس ، وإنما تزوجت أمه رجلاً لأن زيُوس سيدَ الآلهة ويُوزَيْدُون إله البحر اختصما فيها ، وتقدم كل منهما يطلب يدها ، وإنهما لفى هذا إذ بلغهما أن ابنها سيكون خيراً من أبيه وأعظم ، فكف الإلهان عن السعى غيرة من هذا الابن الخطير ، ثم تقدم لها بيليوس فرضيت به كارهة ، فكان لها منه هذا البطل العظيم «آخيل » .. تأنقت الآلهة فى تصويره فاكتمل على يديها صبيًّا بارع الحسن بادىَ الفتنة ، أدرك الإنسانية فى فجرها فأصاب نصيباً وافراً من الفطرة الهادية والطبيعة الصافية ، وأدركته عيون عيون الإلهات فأحببنه واختصمن فيه ، طلبته هِيرا واشتهته أثينا ، ولكنه كان رجلاً إغريقياً ، والإغريقى يعرف الحب ويميل إليه ولكنه لا يسلمه قياده ، ويرى أن الرجولة لا تتم لفتى إذا هو استذلته عيون المها ، أو بكت عيناه من فرط الصبابة ! . وليست النساء فى نظره مما يؤبه له ويجاهَد فى سبيله ، فانصرف آخيل عن الهوى وتعلق بالمجد والحرب ، وكانت أمه قد جلبت له شِيرُون ليعلمه الحرب ، وفُونِكْس ليلقنه البلاغة ، فأدرك من الفنين أوفر نصيب .

خيرته أمه بين أن ينعَم بحياة طويلة مطمئنة ، أو يحيا حياة قصيرة تفيض بالمجد والفخر، فصاح : « بل المجد يا أماه ! » .

فإذا أيفع وأدرك أشده ، خافت عليه أمه سورة شبابه ـ ولعلها خافت عليه أوار الحرب حين قامت الخصومة بين الإغريق والطرواديين ـ فحملته إلى سِيرُوس وخبأته بين فتيات ملك نيكوُمِيد ، فخفى فيهن حتى لم تكن العين لتستطيع أن تميزه منهن لفرط حسنه ، ثم مر بالجزيرة أوديسيوس فى إحدى رحلاته باحثاً عنه ، وارتأى أن يقدم لفتيات ملك نيكوميد

هدايا من الجوهر ، فألقى لهن بعضها وفيها سيف ، فلم يكترث آخيل للجواهر ، وإنما أسرع فأخذ السيف ، فعرفه أوديسيوس ، واستصحبه معه إلى الحرب .

فى تلك الأيام كانت المقادير تؤذن بلاد اليونان بشر مستطير ، كانت الآلهة قد سخطت على البشر لطول سكونهم ، واستكثرت عليهم العيش الهادىء فى ظلال السلم الوارف ، وأدركها الحسد للناس ـ شأنها معهم بين الحين والحين ـ فأحبت أن ترميهم ببلية تحيل أمنهم خوفاً وسلمهم حرباً ، وأخذت تتدبر فى سبيل توقع به الحرب بين الناس حتى اهتدت إلى ما كانت تريد .

كانت هيلانة ابنة زيوس سيد الآلهة تختار لنفسها زوجاً ، وكانت قد شدت رحالها إلى بلاد الإغريق لبعض أمرها ، فخرج لها ملوك الإغريق يطلبون ودها ، فاختارت من بينهم ملكاً اسمه مِنيلاوس ، فأثار هذا فتى من خطابها اسمه باريس ، وكان أميراً على طروادة فى آسيا الصغرى ، وكان راعياً مشهوداً له بالحسن والفتنة ، وكانت الإلهة أفروديت تميل إليه ، لأنه حكم لها بالتفرد فى دولة الحسن حين اختصمت إليه هى وأثينا وهيرا ، فقضى لها ! وكانت قد وعدته أجمل بنات زمانه جزاءً له على هذا الإنصاف ، فلما وجد هيلانة الفاتنة تصير إلى منيلاوس ، أدركه الغضب ، وانطلق إلى أفروديت وسألها أن تحقق له ما وعدت ، فكانت عند حسن ظنه ، ومضت فأوحت إلى مينلاوس أن يستضيف باريس فى قصره ففعل . وإذ قد نزل باريس فى قرب هيلانة فقد سعى إليها ، وكانت أفروديت قد يسرت له الأمر فلم يكن أسهل عليه من إغرائها والفرار بها إلى بلده .

وكان هذا مثار الحرب : هاج منيلاوس ، وغضب له أخوه أجَامِمْنُون أكبر ملوك الإغريق وثار للأمر ملوك الإغريق واحداً واحداً ، وأجمعوا أمرهم على الحرب ومعاقبة باريس وتخريب طروادة ، ونُفِخ فى النفير أن قامت الحرب ! وتهافت الفتيان إلى ميدان الشرف ، وانطلق أوديسيوس ينادى الشبان ويتخيرهم ويجمعهم ، حتى عثر بآخيل بين بنات نيكوميد كما أسلفنا .

دارت رحى الحرب عشر سنين ، كان آخيل فيها بطلاً مظفراً ومحارباً باسلاً . كان عميدَ الإغريق وموئل اليونان ، يرمون له به كل صعب عسير فلا يلبث أن يسهل ويهون بين يديه

وتحدث الناس بأخبار بلائه وأنباء شجاعته ، حتى صار معبود الشباب المتوفز وحامل لواء النصر ، لا يكاد يخذل أبداً . واستبسل الطرواديون أمام اليونان ، وكان يقودهم هِكْتُور ابن ملكها ، وانقسمت الآلهة شيعتين : شيعة مع الطرواديين وشيعة مع الإغريق . كانت هِيَرا وبوزيْدون وأثينا توالى حزب أرْتميس إلهة الصيد ، لأن أجاممنون أصاب غزالاً من غزلانها فى طروادة ، وكانت قبل أن تنضم إلى الطرواديين قد سعت لتنتقم لنفسها : فقطعت الريح عن سفن الإغريق ، فوقفت سفنهم على العُباب لا تستطيع حراكاً ، فمضوا يترضونها ويقدمون لها الضحايا حتى يعطفوا قلبها عليهم ، فأطلقت لهم الريح ، ولكن نفسها كانت ما تزال غضبى ، فمضت تكمل انتقامها فى صف الطرواديين .

وكانت لأجاممنون قينة اسمها كْرِيسا ، ولآخيل صاحبة اسمها بْريسا ، فإذا كانت الحرب فى عنفوانها غضب زيوس سيد الآلهة على أجاممنون غضباً شديداً ، لأنه أتى من الأمر ما ساءه وخالف مشيئته وجر على قومه المصائب ، بما أبدى من العناد ، فلم يكن بد لأجاممنون من أن يقدم لسيد الآلهة قرباناً ليرضى عنه ويحول بينه وبين الانضمام إلى صف الطرواديين . وكان القربان قينته كريسا ، فلما رضى زيوس عنه ، التفت أجاممنون يبحث لنفسه عن قينة بدل التى ضيعها ، فلم يجد أجمل من بريسا صاحبة آخيل ، وكان مولعاً بها منذ حين ويشتهى أن تكون له ، وكان آخيل فى حسابه شاباً فتاناً للنساء لا يعنيه أن يفقد واحدة ، فغصبه إياها . وثار آخيل وتوعد ، ولكن أثينا رجته أن يملك نفسه ، وألا يسترسل مع الغضب ، لأن قومه فى حرب ولا يليق به أن يخاصم قومه فى مثل هذا الوقت لسبب صغير ، فسكت كارهاً ، ولكنه أقسم لا يشترك فى الحرب بعد هذا أبداً .

اشتد الأمر على الإغريق بعد أن قعد عنهم آخيل ، وغلبهم الطرواديون على أمرهم حتى كادت تذهب ريحهم ، وكان اعتزال آخيل قد زاد فى قوة هكتور وباريس ، فأصابا من الإغريق كل مُصاب ، وأمعنا فى التنكيل بهم حتى ثارت حليفتهم أثينا ، فانطلقت إلى زيوس ضارعة إليه أن يقف هذه الحرب ويرحم الإغريق ، وأنكرت أن ينزل بهم هذا البلاء كله بسبب حماقة ارتكبها أجاممنون .

وقد كان زيوس خليقاً بأن يرد على أجاممنون جاريته ، ويأمره بأن يرد بريسا إلى آخيل

حتى ترضى نفسه ويعود للحرب وترجح كفة الإغريق من جديد ، ولكنه كان ـ فيما يبدو ـ سعيداً يتسلى بتأمل الحرب وأحداثها ، فلم يشأ أن يرد الجارية ، ولكنه قَبِل أن يوقف الحرب إذا استطاع محاربو الإغريق البروز لهكتور فى الميدان ، واشترط أن يدوم ذلك حتى يغلبه واحد منهم ! وكان يعرف أن هكتور لا يكاد يُغلب ، ولهذا أحب أن يشبع لذة الانتقام من الإغريق فى نفسه برؤية مصارع أبطالهم . وأخذ شباب الإغريق يخرجون لهكتور ، فلا يكاد أحدهم يستقيم أمامه حتى يرديه ، ولو لم يدركهم أرِيس إله الحرب برحمةٍ لأوردهم الطراوديون موارد الهلاك .

عقدت الآلهة مجلساً وعقد الإغريق مجلساً ، فأما الآلهة فقد طلب إليهم رئيسهم زيوس أن يلزموا الحيدة فلا ينحازوا لأحد من الفريقين ، وكان يرجو من وراء ذلك أن يطيل بلاء الإغريق ، وأن يتلذذ بهزائمهم ، وطلبت أثينا أن يسمح لها بأن تعين الإغريق برأيها ، فسمح لها . وأما الإغريق فقد قرروا أن يندبوا من بينهم وفداً ليرجو آخيل أن يعود إلى الحرب ، وذهب الوفد إلى آخيل وعلى رأسه أستاذه فونكس ، وكان آخيل منفرداً بنفسه فى خبائه منصرفاً إلى اللهو والشراب والموسيقى ، وقد اعتزلت لاعتزاله فئة من الجند كانت تحبه وتحارب من أجله . وخاطب فونِكس آخيل فيما جاء له فرد على أستاذه رداً رقيقاً وأعاد الوفد بإحسان ، ولكنه لم يجبه إلى رجائه .

عاد الوفد خائب المسعى ، فعادت الحرب إلى سابق عهدها ، وتوالت الهزائم على الإغريق حتى ريعت هيرا لمصابهم ، وانطلقت إلى زيوس فعاتبته فى هذا عتاباً شديداً ، وطلبت إليه أن تنزل الميدان ، وأن تحارب مع الإغريق وأن تنفعهم بعقلها ورأيها ، فلم يأذن لها . فلما رأته مصراً على عناده ، سعت بالحيلة حتى تصرفه عن تتبع الحرب وتصريفها كيف شاء ، وكان على عِظَم مكانته أميَلَ إلى الشرِّ يودّ لو استمرت الحرب بين الناس دهرًا ، فحسبت هيرا أن إبعاده عن الحرب يسكّن أوارها ، ولجأت إلى إله النوم ، فأعارها شملته ، فأرسلتها على زيوس ، فنام نوماً عميقاً ، ثم أسرعت إلى الإغريق فشدت عزمهم ، فعاد النصر إلى جانبهم حتى لقد أصابوا هكتور فجرحوه جرحاً بليغاً .

وكان لآخيل صديق يحبه ويدنيه من نفسه اسمه بِتْرُكْلِس ، وكان بطلاً فى قومه محبباً إليهم وله رأى فى مجامعهم ، وكانت الحسرة تأكل قلبه لما أصاب قومه ، فانطلق إلى آخيل

يرجوه أن ينهض لعونهم ، فقد نزلت بهم الهزيمة وليس لهم غيره يقيل عثرتهم ويغسل عارهم ، فأبى آخيل ، فرجاه بِتْرُكْلِس أن يأذن له فى أن يستعير درعه ويركب عربته ويصطحب رجاله إلى الميدان ، علَّ هذا يخلع عليه بعض شجاعة آخيل فيقيم أمر الإغريق فقبل آخيل ، فانطلق بتركلس فى هذه الهيئة وهذا السلاح يحوطه هذا الجمع العزيز من الأنصار ، فأثار الحماسة فى نفوس الإغريق ، فتدفقوا حتى كادوا يقضون على الطرواديين . واستيقظ زيوس ، فلم يكد يرى ذلك حتى ملأت الحفيظة نفسه وخاف أن ينتهى الأمر بنصر الإغريق ، فبعث أحد أتباعه ليرد بتركلس عما كان ماضياً فيه ، فلم يكترث بتركلس لتابع زيوس وضربه فأماته ، فغضب زيوس ، وعاقب بتركلس على هذا بأن نزع عنه سلاحه وهو فى الميدان ، فبدا أعزل ، فأسرع إليه هكتور فأصابه .

هنالك ثار آخيل ، وكان بتركلس عزيزاً عليه أثيراً عنده : كانا رفيقى صبا ونديمى شراب ، فوقع موته من نفس آخيل موقعاً شديداً ، وأقسم لينتقمن له ، ونهض يستعد للحرب ، وقد نسى ما بينه وبين أجاممنون من خصومة . ذهب يلتمس سلاحه فلم يجده ، لأن بتركلس كان قد ذهب به ونزعه زيوس عنه ، فطفق يبكى ، إذ كان لا يجد سلاحاً يليق به ، وسمعت أمه بكاءه ـ وكانت فى مقامها بقاع النهر ! ـ فأقبلت تسعى إليه ؛ فسألها أن تلتمس له سلاحاً ، فأسرعت إلى إلٰه النار فصنع لها درعاً عجيبة ، وحملتها إلى آخيل فادّرعها ومضى إلى الحرب مسرعاً .

نسى آخيل خصومته مع أجاممنون فى سبيل صديقه ، فأكبر فيه أجاممنون هذه الرجولة ، وذهب إليه يصافحه فقبل آخيل صلحه ، وعادت الصحبة بينهما إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، واستقر رأيه على الحرب فى صفوفهم من جديد ، وفرح به قومه فدعوه إلى وليمة طيبة أقاموها احتفالاً بمقدمه ، فأقسم لا يأكل ولا يغتسل حتى يمحو عار صديقه ، فما زالوا به حتى أقبل فأكل شيئاً من الطعام ، ثم قام فانطلق إلى الحرب ثائراً يتوفز إلى النزال توفزاً .

ريع الطرواديون لهذا واضطرب أمرهم ، وأشفق زيوس عليهم وخاف أن تدركهم الهزيمة بعد أن ردها عنهم زماناً طويلاً ، ورأى أنهم أمام خصم لا قبل لهم بمنازلته ، فأذن للآلهة أن تعود إلى الاشتراك مع الناس فى الحرب ، وهو إنما فعل ذلك حتى لا يجد على نفسه

حرجًا من أن يعين الطروادیين برأيه ؛ وهكذا يعبث سيد الآلهة ، ويحير الناس والآلهة معه ! وتلاحم الفريقان وحمى الوطيس ودارت على ساقها الحرب ، وتهاوى القتلى ، حتى الآلهة لم تسلم من أن يكون منها جر حى .. برزت أثينا لأريس إله الحرب فصرعته ! ـ وتلك سخرية طريفة من خيال الإغريق أن يجعلوا إلهة مدينتهم تغلب إله الحرب فى الدنيا جميعاً ـ وأدركته أفروديت لتنجو به مخافة أن تقضى أثينا عليه ، وبرزت هيرا لأرتميس إلهة الصيد فنزعت عنها قوسها ، فأسقط فى يد الإلهة المسكينة ومضت تستعطف !

وتقدم آخيل بجنوده حتى أشرف على أبواب طروادة ، وشدد الهجوم وتفانى جنوده فى الحرب حتى كاد يقضى على جندها المحاربين خارج الأسوار ، لولا أن سارع ملكها الشيخ بْرْيَام ، فأمر بالأبواب ففتحت حتى يدخل المحاربون ويطمئنوا داخل الأسوار . وفتحت الأبواب فتسارع إليها الجند إلا هكتور ، فإنه أبى أن يفر منهزماً ، وأما باريس فقد أسرع فاعتلى السور وتناول نشابه وجعل يتصيد جند العدو ، وكان رامياً ماهراً لا يخطىء الهدف ، فجعل يتصيد كماة الإغريق بسهامه ، وهو آمن بأعلى السور .

وأثار ذلك نفس آخيل ، وود لو قضى على باريس هذا وأراح الإغريق منه ، فأسرع صارخاً مرعداً ، فلما اقترب من هكتور خارج السور ، أدرك الخوف هكتور وتمشت فى نفسه الرعدة ، وخشى أن يلقى آخيل ففر أمامه منهزماً . وأقبل زيوس يعينه فأبت عليه أثينا ذلك، واشتد الأمر بهكتور فأصابه آخيل فى مقتل ، فارتمى على الأرض ، فلما كادت روحه تفارق جسده ، رجا آجيل ألا يمثل بجثته ! . وأنى لآخيل أن يجيب هذا الرجاء ، إنه موتور من هكتور يتمنى أن يمثل به أشنع تمثيل ، وأن ينتقم منه أشد الانتقام ، فربط هكتور إلى عجلته وانطلق بجثته يسحبها على الأرض سحباً ..

وشهد بريام هذا ـ وكان ملك طروادة ووالد هكتور ـ فأكلت الحسرة فؤاده ، وأسرع إلى آخيل والدمع يجرى على خديه يستحلفه أن يرد عليه ولده . ورق آخيل لرجاء بريام ، فقد كان الرجل يبكى بكاءً مراً ، فأعطاه جثة ابنه . وعاد بريام إلى قومه محزوناً أسفاً ، يندب ابنه البطل الشهيد بعبارات لا يملك من يطالعها عند هوميروس إلا أن يفيض قلبه بالحزن ، فقد عرف أبو الشعراء كيف يصور حسرات والد ثاكل فَقَد ابنه ووريثه فى شرخ الشباب

وعنفوان الفتوة . وقد بلغ من تأثر الناس ببكاء بريام أن آخيل كاد ينسى مصابه فى صاحبه بتروكلس ومضى يبكى هكتور ويأسف على ما صنع به ! ومضى يرثيه ويشيد بشجاعته كأنهما لم يكونا إلى الأمس القريب عدوين تتأجج بينهما الخصومة ، وهكذا الأبطال أبداً : لا يكاد عداؤهم يصرفهم عن إعجاب بعضهم ببعض ..

وقد كان هكتور ـ كغيره من أبطال الإلياذة ـ جديراً بكل إعجاب ، فقد استبسل فى الحرب والدفاع عن بلده استبسال من يقدس الوطن ويعرف كيف يفنى فى سبيله ، وقد قتل من الإغريق كثيراً جداً ، وظلت طروادة فى أمن ما عاش ، فأما وقد توفى فقد هيض جناحها وضعف أمرها وملكها آخيل من حيث لم يكن يستطاع رده ، وبات أمله فى النصر قوياً .

غضب باريس لموت صاحبه هكتور ، وآلى على نفسه ليقتلن آخيل ، فحمل قوسه وسهامه واندفع خلفه ، وكانت أم آخيل قد غمرته وهو صبى فى ماء بئر سحرى ، فأصبح جسمه لا تؤثر فيه السيوف والسهام ، ولكنها نسيت أن تغمر كعبه ، ذلك أنها كانت أمسكته منه حين دلته فى الماء ، فأصبح الجزء الوحيد من جسمه الذى تؤثر فيه الرماح والسهام ، أما ما عدا ذلك فصلب تتكسر دونه الأسنة ؛ وكان ذلك سر قوته . وكان باريس يعرف هذا ، فسدد إليه سهماً أصابه فى عقبه فمات لتوه .

أقبلت ثيتس أم آخيل تحمل جسد ابنها الشهيد وانطلقت به ـ وإن فؤادها ليتفرق حسرات ـ إلى مصب الدانوب فوارت جسده فى جزيرة هناك ، وأقامت تندبه وترثيه وحيدة، حتى رقت لها بنات الماء وخرجن إلى شاطىء النهر يَنُحْن معها على ابنها . واستطال الحزن أياماً ، وأقبلت الآلهة تواسى ثيتس ـ وكانت هى أيضاً إلهة ـ وعرضت عليها الآلهة أن تعيد إليه الروح ، على أن يظل فى عزلة بعيداً عن الناس . وفرحت ثيتس بذلك ، واستقام الفتى حياً من جديد ! فمضت أمه وبنات الماء يغنين غناء عذباً جميلاً . ولم تشأ أمه أن تدعه وحيداً ، فخطبت له فتاة شهيدة مثله هى إفيجينيا أجمل بنات الإغريق ، وكان أبوها قد قدمها قرباناً لأرتميس إلهة الصيد ، يوم غضبت على الإغريق وأوقفت سفنهم فى الماء على مقربة من شواطىء أوليس ، وكانت أرتميس قد رقت لها وأبقتها فى قيد الحياة راهبة .

خُطبت إفيجينيا الشهيدة إلى آخيل الشهيد ، ومضيا ينعمان بحياة سعيدة فى عالم الخلود . وقد خلد جيته قصة إفيجينيا فى درامتين من أبدع ما كتب ، وتناولها الأدباء بعد ذلك حتى أصبحت من أشهر شخصيات الأساطير .

هذه صور من البطولة أقل ما يقال فيها إنها جميلة ساذجة ، تشتمل على طائفة طيبة من صفات الرجولة البشرية فى أصفى صورها . فقد رأينا آخيل خلال هذه الحرب كلها يحارب للفكرة ، ويجاهد فى سبيل بلاده وأصحابه . وأما غضبه من أجل صاحبته بريسافلون من ألوان السذاجة التى تزيد الإنسان به إعجاباً ، فآخيل بطل شاب لم تغير الأيام نفسه ، ولم تخرج به متاعب الحياة عن سذاجة الطفولة البريئة ، وغضُبه غضب ساذج لا شرَّ فيه كذلك . فهو لا ينقلب على أصحابه ولا يتخون الإغريق ، وإنما يسكت عن القتال ليعرفوا فضله ، وإن قلبه ليتفطر أسى لما يصيبهم من الهزيمة ، وهو يرجو أن ينصفه أجاممنون ، ويرد عليه بريسا حتى ترتد إليه كرامته ويعود إلى القتال ، ولكن أجاممنون كان شيخاً أنانياً لا تخلو نفسه من الشر ، وكان يرى من كرم آخيل ما يخفف من وطأة حبه لنفسه ، فيعيد إليه بريسا . وقد عاقبته الآلهة فيما بعد عقاباصارماً ، فقُتل على يد زوجه كليتمنسترا ـ وكان لهذا قصة أخرى خلدها سوفوكليس فى إحدى مسرحياته (إليكْترا) .

ولم تكن هيلانة صاحبته ، وإنما كانت إغريقية اختطفها أجنبى ، وكان هذا حسب آخيل لينهض إلى الحرب ، ويشمر عن ساعده ، ففى جهاده معنى من معانى الوطنية والاعتزاز بكل ما يتصل بالوطن ، والثورة لكل ما يصيبه ولو كان أمراً تافهاً لا يستحق أن تثار من أجله الحروب . وكان آخيل شريفاً فى خصومته ، لم يستعن بأمه وصواحبها من الآلهة لينتقم من أجاممنون ، وكان فى إمكانه أن يفعل هذا .. إن بطولته بطولة طاهرة يمارسها صاحبها لنفسها وكأنها فن يمارسه لذاته ، ولم يكن آخيل يطلب لنفسه مجداً ولا ملكاً ، فقد كان أعلى من الملوك بهذه النسبة الطيبة إلى الآلهة .

ومثل آخيل غيرُه من أبطال الإلياذة : شباب حر كريم شجاع ، يقضى الحياة فى ميدان الحرب ،لا يهاب الموت ولا يرهب الجراح . فهكتور بطل طروادة لا يكاد يُغمد سيفه فى قرابه طول يومه ، وهو يقوم على أسوار بلده كالأسد لا يكاد يقربها عدو إلا قضى عليه ، وهو مع ذلك لطيف ساذج يعجب به أعداؤه ويتحدثون بشجاعته كأنه واحد منهم .

وحتى باريس نفسه ، لم يكن بالشرير ولا الغاصب ، وإنما كانت هيلانة قد أعجبته ، وكان يعرف أنها تحيا حياة مجهدة مع منيلاوس ، فقد كان غليظ القلب جافى الطبع لا يعرف كيف يعاملها وهى الرقيقة الفاتنة التى تهافت عليها ملوك الإغريق أجمعون . ثم إن الذنب ليس ذنبه وحده ، بل شاركته فيه أفروديت وهى إلهة ، وكانت أحرى منه بأن تعرف ما ينبغى ومالا ينبغى ، ولعلها دفعته إلى هذا دفعاً ، حتى تشتجر الحرب بين البشر وتستمتع برؤية الناس فى شقاء وَهَمٍّ مقيمين !

وأما عواطف الأبوة والأمومة فهى معروضة عرضاً بديعاً جميلاً ، تراها فى أحزان بريام على ابنه هكتور ، وتراها فى آلام ثيتس على ابنها آخيل ، فتشعر ـ وأنت تقرأ هوميروس ـ جلال الأبوة وتفانى الأمومة على نحو فريد حقاً .

ثم إن رثاء بريام لابنه ليس رثاء كهذه المراثى التى اعتدناها ، وإنما هو وصف لطيف ساذج لمشاعره وأحزانه ، وكذلك أغنيات ثيتس وبنات الماء . وما أحرانا بأن نقرأ هذا كله عند هوميروس ، فإن فيه من منابع الإلهام ما يبعث الشاعرية ويملأ الخيال .

كانت سيرة آخيل درساً يلقن لناشئة الإغريق حتى تتهذب نفوسهم وتُشرب أرواحهم حب البطولة . كانت سيرته تفتنهم ، فيأخذون أنفسهم بالنسج على منوالها ، وكان هذا حافزاً لهم على ما أتوه فى تاريخهم من أعمال البطولة والتضحية .

وليس بغريب أن يكون الإغريق ما كانوا وهذا منهاجهم فى الحياة ومثلهم الأعلى . لاغرابة أن يصبح تاريخهم سجلاً حافلاً بالأبطال والرجال !

ألست ترى أثر الإلياذة وأبطالها بادياً فى حرب الإغريق والفرس مثلاً ؟ أكان يقدَّر لهذه الفئة الإغريقية القليلة أن تصد هذا الجحفل الفارسى الزاحف لو لم يكن فى نفوسها إلهام قوى ونزوع شديد إلى البطولة مصدره بطولة آخيل وسحر هوميروس ورجاله وأشعاره ؟ ..

أكان يقدر للإسكندر هذا الظفر الخالد ، والصيت الطائر ، بغير هذا الخيال الشامل الذى سرى فى نفوس الإغريق من شعر هوميروس وسير أبطاله ؟ أليس طبيعياً أن يكتب لهذه الأمة الصغيرة هذا الديوان الحافل من البطولة والنصر ، وقد كان لشبابها ورجالها خير

ملهم من هذه السير الساحرة التى أبدعها هوميروس ، أو الشعراء الذين اصطلح التاريخ الأدبى على أن يسميهم هوميروس ؟.

بل لقد كان آخيل أبعد أثراً من هذا : قرأ الرومان سيرته فسحرتهم بطولته ، وانبرى شاعرهم فيرجيل فأبدع على مثال الإلياذة ملحمة جميلة هى الإنيادة .

مازالت الإلياذة حية فى كل قلب حساس شاعر ..

ولا يزال يقرؤها كل من حفزته نحو البطولة نازعة أو ربطه بالخيال البديع نسب ..

مازالت ديوان الشاعر والأديب والمؤرخ والقصصى والجندى ، ومازالت منبعاً يستقى منه كل من أجرى قلماً على ورق أو عبث بأصابعه على معزف ..

كانت مصدر الإلهام لجيته وشكسبير وشيلر وشلى وجيرودو ، وكانت مصدر النغم لموتسارت وبيتهوفن وجلوك وشتراوس ..

إنها ديوان الدواوين وكتاب الأبطال ومصدر الإلهام . !

أسد فى ثوب إنسان

ليونيـداس

« إن نفوس الآلهة لأضعف من أن تحمل قلب هذا الرجل . وإن الطبيعة البشرية لتضعف عن أن تحمل فضيلته ... »

(سيمونيدس)

وما عسى خيال الشعراء أن يبلغ فى وصف هذا الرجل ؟ وما عسى الألفاظ أن تستطيع فى تصوير إنسان كهذا ؟ وهل تستطيع هذه الكلمات القلائل التى نقشها سيمونيدس على قبر ليونيداس أن تمثل للناس هذا البطل كما ينبغى أن يتمثله الناس ؟ لعل حقيقة أمره أن تكون إغراقاً فى الخيال ، ولعل حديثه أن يكون إسرافاً فى المبالغة ، فما يصدِّق العقل البشرى أن رجلاً يثبت لجيش عدته ألف ألف وتزيد ، يثبت لهم ثبات الصخر الصلد الذى لا يلين حتى لقد زعموا أنه كان محتمياً بجبل مسنداً إليه ظهره ، فلما انجلت الموقعة رأى الناس أن الجبل تزحزح إلى الوراء قليلاً ، أما ليونيداس فلم يبرح مكانه ومات حيث كان ! .

كان هذا قبل الميلاد بخمسة قرون ، وقد أقبل إجزرسيس ملك فارس على رأس جيش كأنه قطع الليل .. وكانت فارس قد أغارت على بلاد اليونان مرتين ، وارتدت عنها فى كل منهما تنوء بالخيبة القاصمة ، فلم يكد إجزر سيس يخلف أباه « دارا » حتى شمر للحرب ونفخ فى صورها ، فخفت إليه القبائل تسعى والجحافل تترى ، فنظمها فى جيش عدته ألف ألف رجل ، وازدادوا نصف هذا العدد فى الطريق ، مزودين بما كانت فارس ـ سيدة الدنيا فى ذلك الأوان ـ تستطيع من عدة الحرب التى لم يبلغها بالغ من قبل ولا من بعد فى العصر القديم ، ثم ساقهم إلى بلاد اليونان سيلاً لما بلغ أوله بحر إيجه كان آخره على ضفاف الفرات كما يقول الرواة ! وأقام لنفسه نُزُلاً من الرخام على ضفاف البسفور ليشهد بعينيه عبور جيشه سبعة أيام بلياليها .

فلما هبط بلاد اليونان روع الإغريق من هذا الحشد الهائل الذى يزحف عليهم حاملاً الموت والدمار والعار ، وكان إجزرسيس قد آلى على نفسه ليمحونّ من العالم بلاد الإغريق محواً ، إذ كانت الدنيا بأسرها قد دانت لسلطانه ، ولم يبق غير هذه الدويلات المنثورة المتفرقة تناوئه العداء وتأبى أن تخفض له جناح الذل والامتثال ، وكان يحسبها مسرعة إليه باذلة الطاعة حين تجده مقبلاً عليها بهذا الجحفل اللجب . ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، إذ أن الناس كانوا يهجرون الأرض ويتقهقرون فى عجلة لكى يتجمعوا أمامه جيشاً واحداً ويلقوه لقاء رجل واحد ، فما كان إجزرسيس يطأ إلا خراباً ولا يمر إلا بيباب .

ترى كيف يكون احتيال الإغريق لهذا الأمر العظيم ؟ لو احتشدوا كلهم جيشاً واحداً لما صاروا فى عدد جيش الفرس . ولكن ، أيطلبون صفح إجزرسيس ويشترون الحياة بهذا الذل الذى لا يمحى ؟ أم تراهم يهجرون الأرض جملة وفى بلاد الله رحاب واسعة لمن طلب الحرية؟ حاشى للإغريق أن يفعلوا هذا أو ذاك وهم يعتقدون أنهم خلاصة البشر ، وأنهم الأقربون إلى قلوب الآلهة ومراتبها .. حاشاهم أن يتركوا أثينا ومعبدها ليفعل به إجزرسيس ما يريد .

ترددت هذه الآراء فى مجالسهم الحربية ، ونادى بها بعض زعمائهم ، لأن الخطر المحدق كان جسيما ، ولأن كل تفكير فى المقاومة كان يبدو كأنه ضرب من الجنون لا يقدم عليه إلا غر لا يحسن النظر فيما أمامه ؛ ولكن التقهقر وترك البلاد ـ وفيها أقداس الآلهة ، وتراث الأجداد ، وملاعب الصبا ، وجنان الحياة ـ أمر لايطيقه إلا جافى الطبع ، الذى لا تعمر نفسه من الإنسانية خالجة . وكان الإغريق يرون أنفسهم سادة البشر وخلصاء الآلهة ، وكانوا لا يشكون فى أن واحدهم يعدل العشر ات من غيرهم ، وكانت سيرتهم على ألسن أهل زمانهم أحدوثة تفيض بالمجد والعزة والكرامة ، وقوم هذا شعورهم بأنفسهم وهذا مكانهم فى الناس لا يسهل عليهم قبول الذل مهما عظمت التضحية فى دفعه ، فانتهى بهم الرأى ـ بعد طول تدبر وتشاور ـ إلى وجوب الوقوف للعدو والدفاع عن أرض الوطن العزيز.

ولم يكن من الميسور لقاء العدو فى ساحة عريضة مترامية الجوانب ، لأن بضعة الآلاف الذين يستطيع الهيلينيون حشدهم لن يلبثوا أن يختفوا فى هذا الخضم الحافل الذى كان

الفرس مقبلين به ، ولم تكن هناك إلا وسيلة واحدة لدفع الخطر ، هى الوقوف فى برزخ كورثنه حيث يضيق المجاز ويختنق الطريق ولا يستطيع الفرس الاستفادة من جحافلهم ، لأن برزخ كورثنه خانق ضيق لايجوزه الإنسان إلا على شريط من الأرض ينحصر بين الجبل والبحر ، وكان إغريق فُوكيا قد أقاموا على وسط هذا الشريط حائطاً يحميهم من غارات التَّساليين شمال البرزخ ، وكانت هناك قرية صغيرة خافية على سفح الجبل عند مخرج البرزخ من الجنوب تسمى ألبينوس ، فحصنها الإغريق واتخذوها متكأ يعين جيشهم على الثبات .

وندب الإغريق قائداً من أقوى محاربيهم قلباً لكى يقف ببعضهم على هذا الممر فى وجه الجحفل الأسيوى المقبل ، ذلك هو « ليونيداس » بن أنَا كْسَاندريداس ملك إسبرطة وفتى الإغريق المشار إليه فى كل ملمة . وكان ليونيداس سليل بيت من الأُسد توارث القيادة والنصر فيه آباءٌ عن أجداد ، فلم يكد مجلس الحرب يندبه لهذا العمل حتى خف معجلاً بسبعة آلاف من خيرة محاربى الإغريق ورماتهم . وكان ليونيداس يعرف أن الفرس إذا عبروا المجاز فقد أفضوا إلى أثينا قدس الإغريق وأحالوها ترابا ، ثم يفضون بعد ذلك إلى ولايات لوكريس وأرْجوليس وإخايا وأركاديا من بلاد الإسبرطيين التى نجملها نحن اليوم تحت لفظ «المورة » فعول لهذا على الاستشهاد دون أن تمس قدم الطاغية المغير أرض وطنه العزيز .

وأقبل الأسطول الفارسى فى مئات من السفن محملة بالجند والعتاد ، أرادت أن تدخل فى خليج ماليا لتهدد جناح الإغريق الأيمن ، فما تسامع الأثينيون بذلك حتى أرسلوا ثلاثمائة مركب ونيفاً من أسطولهم لكى تقف فى خليج ماليا ، وترد العدو . وأقبل أسطول الفرس ينساب كالحية بين الخلجان ، وألقى مراسيه عند رأس أرتيميسيوم ليحول بين أسطول اليونان والدخول ، ثم انتقل إلى أقيتية لكى يكون فى مأمن من العواصف ، فاستحال بذلك على الأسطول الإغريقى أن يتصل بليونيداس ورجاله ، واضطربت أفئدة الإغريق جميعاً خوفاً عليهم ، فبرز من بين الصفوف فتى أيدٌ تعمر الوطنية قلبه ، فألقى نفسه فى الماء وسبح عشرة أميال ـ من معسكر ليونيداس على شاطىء البحر إلى أرتيميسيوم حيث يرسو الأسطول ـ ليحمل الأخبار ، سبحها دفعة واحدة غير مبال بالموت والأمواج ، فشابه بذلك فتانا المصرى « شَمَايل » الذى سنراه فى أخبار أبطال دمياط يسبح من المنصورة إلى دمياط ،

ويخترق النيل بين سفن الفرنج ورماتهم لكى يحمل الأنباء إلى مواطنيه المحصورين فى دمياط .

فى هذه الفترة كان ليونيداس يحصن مركزه فى مضيق ترموبيلى ، فتخير ألفاً من الأبطال وبعثهم ليقفوا عند مخرج ممر جبلى آخر كان الفرس يستطيعون النفاذ منه ومهاجمة الإغريق من خلف ، ووقف هو مع ستة آلاف مستعداً لكل تضحية فى سبيل المطلب الأعلى الذى ارتهن به حياته . وتعجب إجزرسيس من جرأة هذا الإسبرطى الرابض أمامه ، ولم يشكَّ فى أن الرعب لا يلبث أن يملكه فينسحب برجاله من هذه المهلكة ، ولكن ليونيداس لم يفكر إلا فى شىء واحد : رد العدو ، والموت دون تراب الوطن العزيز .

وانتظر عاهل الفرس أربعة أيام ، لكى يعطى الإسبرطى فرصة يراود فيها نفسه قبل أن يهلك . وفى اليوم الخامس بدأ الهجوم ، وأطلق رماة الفرس على الإغريق سيلا من الموت تلقوه فى صبر وجرأة ، وانقضوا على الرماة بحرابهم فزعزعوهم عن مكانهم وقتلوا منهم نفراً غفيرًا ، فريع إجزرسيس واستثاره الغضب والحزن لمصاب جنده ، حتى لقد « قفز عن عرشه ثلاث مرات » كما يقول هيرودوت . واستبان قواده أن زحزحة هذه الحفنة الإغريقية عن أماكنها مطلب لا يرام ، فلم يبق إلا إرسال فرقة من الجند تخترق الممر الثانى وتفجأ ليونيداس ورجاله من خلف ، فندب إجزرسيس عشرة آلاف من خيرة الجند وأرسلهم ليقوموا بهذه المهمة ..

وقد حدثتك بأن ليونيداس كان قد احترس لهذا الخطر بألف من رجاله أرسلهم ليقفوا عند مخرج الممر ، فانقضت هذه الآلاف العشرة بغتة على أولئك الرجال وأنزلت بأكثرهم مذبحة مروعة ، وتفرق بقيتهم فى الجبال ، وبهذا انكشف ظهر ليونيداس وتهدده الخطر من أمام ومن خلف . ولو أن رجلاً آخر كان يقود الإغريق فى ترموبيلى لتقهقر وترك الدفاع ، لأن الثبات كان يعد فى هذه الحالة ضرباً من الجنون . واجتمع مجلس الحرب من رجال ليونيداس ، وقرر بعض القادة أن ينسحبوا لينجوا برجالهم من هذه المذبحة ، وانسحبوا . ولكن ليونيداس أبى ، لأن شرفه كإغريقى وجندى أبى عليه أن يخلى بين العدو وبلاده ، فثبت فى ألف وأربعمائة من رجاله ، لكى يحارب جيشاً تقرب عدته من ألف ألف ! وفرق

جنده على الممرات ومواضع الخطر ومحارس الجبل ، وبقى فى ثلاثمائة من الرجال ليصيد الفرس .

وربما كان الصواب فى مثل هذا الموقف أن تقف القلة المحصورة موقف الدفاع ، عسى ذلك يطيل أمد الحرب فتتاح الفرصة لبعض إمدادات إغريقية لكى تأتى . ولكن ليونيداس لم يطق الصبر ، وأخذته حميّة الفتوة ، فحمل على الفرس بمن معه ، وظل يقاتل حتى وقع فى الميدان صريعاً بعد أن قتل أخوين لإجزرسيس نفسه ، وأحاطت البقية الباقية من رجاله بجسده يدافعون عنه سيل الأعداء الذين ودوا لو مزقوه إرباً . واستمرت المعمعة وقتاً طويلاً، وهذه الحفنة من الأبطال التى لا يزيد عدد رجالها على بضع عشرات تقاتل حتى فنيت عن آخرها ، ولكنها كبدت العدو من الخسائر بضع عشرات من الألوف ! ... وعبر إجزرسيس المضيق على جثث الأبطال الخالدين وعلى جثث مواطنيه ، فكأنما آلى ليونيداس ورجاله أن لا تمشى جحافل المغير على تراب الوطن حتى تخوض فى دماء جنوده الأمجاد !

وتسامع الإغريق جميعاً بما فعل ليونيداس ورجاله ، فامتلأت نفوسهم حمية وإيماناً ، ونظر إجزرسيس إلى من سقطوا من رجاله فريعت نفسه لهذه الكارثة ، وأنشأ يسائل نفسه : كيف السبيل إلى مغالبة قوم بهذه الشجاعة وهذا التفانى ؟ كان قد هلك من جيشه إلى الآن عشرات الألوف ، وتحطمت من سفنه مئات ، وهو بعدُ مازال على أبواب بلاد الإغريق لم يطأ من أرضها إلا بقعة لا تغنى .

نعم لقد أفضى الفرس إلى أثينا ودخلوها فيما بعد ، ولكن ثبات ليونيداس أعطى مواطنيه وقتاً يستجمعون فيه قواهم ويتدبرون الخطة التى ينبغى أن تتخذ أمام عدوهم ، حتى استبان لهم أن خير السبل إنما هى ملاقاة الفرس فى البحر ، وتحطيم أسطولهم الذى كان يسير بإزاء جيشهم على الساحل يمده بالعون والمؤن . وكان ثيموستوكليس على رأس أسطول الإغريق ، فبدا له أن ينقل الحرب من البر إلى البحر ، ولم يكن عند اليونان إذ ذاك أسطول يستطيع لقاء أسطول فارس العظيم ، وكان لابد من وقت لبناء سفن جديدة ، فنقل أهل أثينا إلى جزيرة مجاورة نأياً بهم عن ذل الفرس . وكان لابد لذلك كله من وقت ، فلو لم يكن ليونيداس قد ثبت بجنده وأوقف الفرس هذه الفترة الطويلة لاجتاح العدو البلاد ،

ولما استطاع ثيموستو كليس جمع الإغريق لبناء الأسطول وهزيمة الفرس فى سلاميس .

لقد مات ليونيداس ، ولكن موته كان موت الخلود ..

نجت به بلاد الإغريق من بلاء العدو المهاجم ، وتمهد به السبيل لنصر خالد لها على الأيام .

يوم سلاميس

ثمستوكليس

٥٢٥ ـ ٤٦٠ ق . م

كأن هؤلاء الناس ليسوا من البشر ، إنهم خلق آخر غير طغام الناس وعامة الآدميين ، في حياتهم هزل هو أقرب إلى أن يكون جداً ، وفى تاريخهم جد لا ينهض به غير الأمم الأصيلة العزيزة ، وأى أمة لها مثل هذا الفخر العميق الذى أبدعته أَرِيسْتُوفانِسْ قبل الميلاد بقرون ، ثم لا يزال الدهر يتحدث عنه كأنه جديد لا يبلى ؟ وأى أساطير يعجب بها الناس ويتخذونها مأخذ الجد مثل أساطير هوميروس ؟ وأى جد هو أعنف من هذه الحرب الضروس التى أعلنها على اليونان ؟ وأى برهان على عظمة هؤلاء ، وأى دليل على عبقريتهم هو أعظم من هذا النصر العزيز الذى وفقوا إليه فى هذه الحروب ؟ وأى حديث هو أقرب إلى نفوس الرجال ، وأندى على نفوس الأبطال من حديث سَلاَميس أو سيرة مَارَاثون ؟ ذلك حديث لا ينفك الزمان له مردداً ، وأولئك أبطال لا يبرح الدهر بذكرهم مُنشداً . وأين فى الناس مثل ثِمِسْتُوكْليس ، ومثل أَلْسِبْياد ، ومثل أَرِسْتِيد ؟ بل أين فيهم مثل أى من هؤلاء الجنود الصناديد الذين ثبتوا لعدوا كاسر يرميهم بفيالق من الجند كأنها قطع الليل ، ثباتاً لا مثال له إلا فى الأساطير ؟ .. وإذا كان هذا مقام جندهم العادى فى التاريخ ، فما بالك بالممتازين فيهم ؟ ما قولك فى رجل يكاد يكون أخلدهم بعد بِرِكْلِيس ، وأبعدهم فى حياتهم أثراً ؟ ما رأيك إذن فى ثمستوكليس ؟

تلك يونان القديمة تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء العدو الفارسى المهاجم ، وتلك ولاياتها قد تضافرت وأقامت لنفسها جيشاً واحداً خف للقاء العدو عند برزخ كُورِنْثُوس ، وهذا ملك قرْطَاجَنَّة يُوربيَاد ، قائد الجنود العزيز يقودهم وقد حمل فؤاده فى كفه ثم هذا ثمستوكليس رئيس مجلس أثينا : إنه يتأمل الأمر فلا ينتهى إلى الاطمئنان . لقد قرر

يوربياد أن تُترك أتيكا كلها ـ وفيها أثينا ـ لينهبها الفرس ، فإذا تقدموا بعد ذلك لقيهم اليونان فى هذا البرزخ الضيق الخانق ؛ ولكن ثمستوكليس لا يرضى عن هذا ولا يطمئن إليه وكيف تباح أثينا ، ويهدم الأكروبول ، وتهدر كرامة الإغريق ؟ وكيف ينفذ العدو إلى ما يريد دون أن يلقاه الأبطال الصناديد ؟ لا ، إن هذا لن يكون ، وليقف اليونان للعدو يصدونه عن أثينا ، وليكن بعد ذلك ما يكون . ولكن كيف السبيل إلى ذلك والإغريق شرذمة صغيرة إذا قيست إلى جيش إجزرسيس ؟ هنالك أعمل الرجل الفكر حتى تفطن إلى هذا الحل البديع الذى أنقذ اليونان وحضارة اليونان .

خف الرجل إلى مجلس الحرب واجتمع مع القادة وعرض عليهم ما انتهى إليه رأيه ، وقال : « لنبن أسطولاً ضخماً ، لأن الفرس قوم بريون لا يعرفون البحر ولا صبر لهم على أهواله ، ونحن أولى أن نبحث عن مكان الضعف فيهم لنغلبهم منه . فلنبن أسطولاً ضخماً نزوده بأفضل من عندنا من الملاحين وساسة السفن ، فإذا فكر الفرس فى نزول البحر لملاقاة أسطولنا هزمناهم على صفحة الماء على أيسر سبيل ، وإذا مضوا فى البر نزل رجال أسطولنا من خلفهم إلى البرزخ وأغلقوه ، فوقع الفرس بذلك بين نبال جندنا من أمام وحراب ملاحينا من الخلف ! » .

أعجب المجلس بالفكرة إعجاباً شديداً وهلل لها اليونان تهليلاً ، ولكن يوربياد لم يرض عنها ، وكيف يطمئن هو إلى رأى يحرمه نصيبه من البطولة ، ويضيع عليه الفرصة المرموقة فى المجد والخلود ؟ إنه ليرفض رأى ثمستوكليس ويعارضه أشد معارضة ، بل إن اللجاج ليشتد بينهما حتى ينهض يوربياد ويهوى بيده على وجه ثمستوكليس فى وسط المجلس ! ترى ماذا يفعل هذا الرجل العظيم ؟ إنه ليسكن لحظة كأن شيئاً لم يحدث ، ثم ينظر إلى يوربياد ويقول له جملته التى حفظها الناس عنه ، ولا زالوا يرددونها حتى اليوم : « اضرب .. ولكن لتسمع ! » . أجل ليضرب الأحمق ما يشاء له حمقه ، وليجهل ما يسعه الجهل ، فهذه أمور ينحصر ضررها فى ثمستوكليس وحده ، وهذا أمر لا يهم ، ولكنه لابد أن ينصت إلى مايعرضه عليه ثمستوكليس ليقتنع به ولينفذه حتى ينجو الوطن . وأحس القرطاجنى حرج مركزه . وأنصت فإذا حديث ثمستوكليس يلقى من نفسه القبول والرضا ، وإذا هو يوافق ، ويمضى إلى التنفيذ ! .

ولم يكن عناد يورپياد هذا أعنف ما لقى ثمستوكليس من المقاومة فى سبيل إنفاذ رأيه ، فقد كان اليونان إذ ذاك لا يكادون يطيقون التفكير فى ترك بلدهم العزيز نهبا للعدو وانتظاره فى سفائن على الماء ، فما زال الرجل يحتال عليهم ، بالرأى تارة وبالحيلة تارة أخرى، حتى رضوا واطمأنت نفوسهم ، وأقبلوا ينفذون رأى قائدهم البعيد النظر .

أتصدق أن اليونان بنو الأسطول فى أسابيع ؟ وأنهم دربوا الجنود ، وأعدوا العدة ، وانتظروا إلى جانب سلاميس قبل أن يصل الفرس إلى قلب الجزيرة ؟ ثم أتصدق أنهم أخلوا أثينا من سكانها ، ونقلوهم كلهم إلى جزيرة سلاميس ، إلا نفراً من الجند أبت عليهم وطنيتهم أن يخلوا بين العدو والعاصمة ، فلبثوا يحمون الأكروبول وماتوا على أسواره ؟ .

وأقبلت جحافل الفرس فسحقت ليونيداس وأصحابه فى تِرْمُوبيل ، ثم انقضوا على أثينا فحرقوها ، ثم نظروا فإذا اليونان لهم فى البحر بالمرصاد .

وأقبل الأسطول والتقى الجمعان ، وكان ثمستوكليس على رأس أسطول اليونان ، فأظهر من القدرة والمهارة ما خلد اسمه فى التاريخ ، واستطاع أن يقهر القوة الفارسية الهائلة ، وأن يخط فى سجل الزمان سيرة هى أعجب السير ، ونصرا هو أفخر الانتصارات ؛ ذلك نصر سلاميس . وكان إجزرسيس يرقب المعركة من فوق تل على الساحل ، فهاله أن وجد قواته تتهاوى إلى قاع اليم ، وسفنه تغرق ويبتلعها الماء ، ثم نظر فإذا أسطوله أثر بعد عين ، وإذا هو وحيد خائف قد تقاسم جنده اليم والأسر والفرار ، وإذا هو يهم مسرعاً ليرجع القهقرى مخافة أن يسبقه اليونان إلى الدردنيل ويأتوا على البقية الباقية من قواته عند هذا البوغاز الخطير .

ثم انظر إلى ثمستوكليس بعد ذلك ، وقد ثار به خصومه فى الجمعية وهاجموه هجوماً عنيفاً ، واتهموه بالسرقة سنة ٤٧١ ق . م . لقد دافع عن نفسه دفاعاً مجيداً ، واشتد أنصاره فى حمايته ، ولكن الأعداء لا يرحمون ، فيثبتون عليه التهمة ، ويحكمون عليه بالنفى ، ويطرد من بلاده ، فيطوف فى الآفاق شريداً .

عاش ثمستوكليس بعد ذلك ما شاء الله له أن يعيش فى ظلال النفى والتشريد ، يتأثره أعداؤه من بلد لبلد ، وينصبون له الشباك فى كل مكان ، وتضيق به الأرض على رحبها ،

وتسد فى وجهه المسالك على كثرتها ، حتى وصل إلى آسيا .

فى هذه العزلة القاسية ، وفى ظلال ذلك الهم المقيم ، يتأمل الرجل حياته الطويلة منذ نشأ فى أحضان الفاقة فى قرية خاملة ، ومنذ مضى يطلب المجد والشهرة والغنى فى أثينا ..

ثم يتأمل حاله بعد ما أسدى إلى اليونان من خير ، وما صاروا إليه بعد أن انقلبوا عليه وأسلموه لهوان الذل والحرمان ..

هنالك يشتد به الهم ، ويشتد عليه طلب الأعداء ، فيخف إلى بلاد فارس ليختفى فى وهادها ، وليموت بين فيافٍ لا ترحم ، وقمم لا يعمرها غير العقبان ..

تاريخ رجل

ديموستين

نحن اليوم فى طريقنا إلى الجمعية العمومية لأحرار اليونان ، لنشهدهم فى أبهى مظاهر حريتهم ، وأكمل صور حضارتهم . إنهم اليوم ـ فيما يبدو ـ منصرفون إلى أمر ذى بال يستغرق انتباههم كله . إنهم ليتسارعون إلى الجمعية العمومية يتزاحمون على مجلسها ، يود كل منهم أن يفوز بمكان طيب يشهد منه المناقشة ، ويشتد بينهم الصخب واللجاج . لنفعل فعلهم ولنتخذ أماكننا فى الجمعية على مقربة من منصة الخطباء ، لأن الأمر فيما يلوح خطير ، ولأن المشهد سيكون فيما يزعم الناس بديعاً فريداً ، قلما يظفر الناس به فى غير المناسبات النادرة الفريدة من هذه الحياة اليونانية السياسية الحافلة بكل طريف وجليل .

هاهم أولاء أساتذتهم ، وطلابهم ، وحكامهم ، وسرواتهم ، وعامتهم ، يجادل بعضهم بعضاً ، ويغاضب بعضهم بعضاً : إن أهل السياسة ليؤكدون لمحدثيهم أن « أوروبوس » وأصحابه مجرمون ، وأن القضاة لن يفلتوهم من عقاب صارم ، وما عسى أن يفعل المحامون فى الدفاع عمن حقت عليهم تهمة خيانة الدولة ، وثبت اشتراكهم مع الأعداء على الوطن العزيز ؟ وأى محام يؤتى من القدرة ما يقنع به القضاة بالتهاون فى أمر من امتدت أيديهم إلى ما ائتمنهم عليه مواطنوهم من مال ؟ .. أما الأساتذة وطلبة القانون فكان لهم رأى غير هذا إنهم لعلى ثقة من أن كالِسْتَرَاتُس قدير على أن يجعل البياض فى أعين الناس سواداً ، وأن له لساناً عضباً وفكراً سلياً ومنطقاً ساحراً ، وأن له لبلاغة موكلة بالمعجزات ، فما يكاد يرسل صوته الرنان يهدر فى فضاء الجمعية ويضطرب فى آذان القضاة ، حتى تبدو براءة أوروبوس ناصعة لا تشوبها شائبة ، وحتى تبرىء الآلهة ساحته وتخلصه من عذاب أليم .

وتشتد اللجاجة بين الجانبين ، فيشتد شوقنا إلى رؤية هذا المدره الداهية ، وسماع حديثه

الذى ملأت شهرته الآفاق ، حتى عده الناس إحدى عجائب الدنيا . إن اللجاج ليطول وإن الصبر ليقصر ، ولكن رويداً !

أولئك هم القضاة يقبلون فى خطوهم المتئد وحكمتهم البادية ، أولئك هم يشقون طريقهم صامتين ، يشغلهم التفكير فى شئون العدل عن الناس وصخبهم ، وأولئك هم المتهمون يتخذون أماكنهم قرب القضاة وهم أشد ما يكون ثقة فى البراءة ، وهذا هو كالستراتس يقبل فيهتف الناس باسمه هتافاً متصلاً ، ويصفقون له تصفيقاً مدوياً ، ويتظاهرون لرؤيته والاقتراب منه كأنه إحدى فُرج الدنيا ، وهو مزهو بنفسه لا يكاد يشعر بمن حوله من كثرة ما يفكر فى نفسه وينصرف إليها ، شأن كل من يفرط فى الإعجاب بنفسه حتى يطيش صوابه ويضله الغرور .

هاهو عقد الجمع يكتمل ، والقضاة يعلنون بدء المحاكمة ، وهذا هو كالستراتس ينهض فيحبس الناس الأنفاس ويرهفون السمع ، ويتبادلون رجاء السكوت ، ليتيسر لهم سماع الخطيب الذى يبدأ يهدر بالكلام ، يصعده ويحدره ، ويلعب بالنفوس يرضيها ويسخطها ، حتى ينتهى من دفاعه ويخرج بين براءة المتهمين وإعجاب المعجبين .

ثم هذا هو الجمع ينصرف عن الجمعية وقد اشتد الجدال وقامت قيامة الألسن . إن الناس مختلفون الاختلاف كله حول هذا الحكم الغريب الذى أصدره القضاة : فريق منهم يؤكد أن المسألة مسألة عدل وليست مسألة بلاغة أو تلاعب بالعقول .. إن المتهمين خونة مضيعون ما فى ذلك شك ، فكيف تبرأ ساحتهم لأن رجلاً لسنا بارعاً تصدى للدفاع عنهم؟ إن إعجاب القضاة ببلاغة الخطيب لا يكفى ، لأن الحكم ينبغى أن يقوم على الحقائق المجردة . أما الفريق الآخر ففريق الشباب اليافع المتوفز الذى يرى الحياة فناً جميلاً يملك ناصيته الملهم الذكى الموهوب ، وهو يحكم على الأمور بمشاعره لا بعقله ؛ ومادام هذا المدره قد خلب لبه بما أبدى من التفنن فى القول ، وما أبدع فيه من العبث بالمنطق والواقع ، وما تكلفه من التصرف فى مواد القانون ، فإنهم معجبون به مؤيدون له . إنهم يمثلون الفكر المتفنن الذى يعجبه الإبداع والابتكار كيفما كانا ، فى سبيل الخير أو فى سبيل الشر ، لأن المهم عندهم هو الخلق والتجديد .

وقد كاد الجدال بين الفريقين أن يصير خصاماً ، وكادت الخصومة أن تكون شجاراً ؛ فلنبق فى أماكننا حتى ينصرف الجميع ويهدأ الجو ويخلو الطريق ..

لا يكاد المكان يخلو من آهليه ، ولا تكاد أقدامنا تمضى بنا نحو الباب ، حتى نرى شيئاً لا نملك معه معجباً .. فهذا صبى صغير ينهض من تحت المقاعد ! وهو ينفض التراب عن شملته كأنه كان ملقى على الأرض ، أو كأن زحمة الناس ألجأته إلى التراب ، ثم إذا به ـ حين يطمئن إلى خلو المكان ـ يجلس على أحد المقاعد ويسرح ببصره ، كأنما يستغرقه الفكر أو كأنما تحمله الأطياف على أجنحة الأحلام ، ثم يصحو من الغفوة فينهض ويتخذ هيئة كالستراتس ، ويمضى يقلده فى صورة تبعث على الضحك . فبينما هو فى هذا إذ أقبل مؤدبه يلتمسه ، فإذا رآه صاح به ثم عدا إليه يضربه ، والفتى ساكن لم ينقطع تفكيره فى الخطيب بعد ، فهذا هو يسير مع مؤدبه شاخص البصر ذاهب الفكر ، يخالس منصة الخطيب النظر ، ويطوى نفسه على حزن كامن وألم شديد .

هذا صبى له شأن ما فى ذلك ريب .. فلنلتمس أخباره ، ولنصحبه ما وسعنا فى مسلك الحياة ، ولنتسقط أنباءه ، عسى أن يصدق ظننا فيه .

* * *

يريد الفتى أن يكون خطيباً ، ويشتد على نفسه لإدراك هذا المطلب ، ولكن لسانه لايطاوعه ، وصوته يخونه ، ومنطقه يقعد به عما يريد . إن لسانه يعانى ثقلاً يعوقه عن الانطلاق مع الحديث إذا أراد ، ولكنه لا ييأس ولا يدركه الملل ، بل هو يأخذ لسانه بالمران حتى تفارقه هذه اللثغة التى تثير الضحك ، وإنه ليشتد فى مران صوته حتى يخلص من اضطرابه البالغ ، وإنه ليجتهد فى تقويم منطقه بالفلسفة والعلم حتى يستقيم ، وإنه ليقاسى من هذا مشقة ويتجشم تعباً .

وقد بلغ به الجنون بالخطابة ، أن كان يذهب إلى شاطىء البحر ، ويمضى يخطب الأمواج ، ليضيع صوته فى هدير الماء ، ولا يعود يسمعه فيخجل من نفسه ، أو يخشى أن يراه إنسان . هو يطيل البقاء على الشاطىء ساعات متواليات ، يقترح على نفسه مواضيع يخطب فيها ، ثم يمضى يتكلم ، ويتصور نفسه فى مجلس كبير أو فى محكمة ، وأن

المقاطعات تتواتر ، والأسئلة تتوالى ، وهو يرد عليها ويناقشها ويدحضها ، حتى جرى لسانه وثبت جنانه وتجلى بيانه . وتنقضى الأيام وهو يعالج نفسه على هذا النحو المجهد حتى تُـجْهد حنجرته وتكاد تمرض ، وتمضى الشهور وهو فى حيرته بين فلسفة الفيلسوف وحذلقة اللغوى وجنون الخطيب ..

ثم يدرك أن ما يبذله من الجهد لا يكفى ، لأن خروجه إلى الناس وجلوسه معهم يستغرقان من وقته الشىء الكثير ، لأنه لا يطيق الوحدة الطويلة ولا تلبث نفسه أن تضيق بها ، فيمضى إلى حيث يسمر وينفق الوقت ؛ وكان هذا يثير فى نفسه الندم . فلم يجد وسيلة تمنعه من هذا الإسراف فى الوقت إلا أن يحبس نفسه عن الناس أشهراً طويلة ، وليس أعون له على هذا من أن يحلق نصف رأسه ويدع النصف الآخر ، فلا يجرؤ على الخروج إذا حدثته نفسه بالخروج ، ولا يستطيع أن يلبى نداء نفسه إن هى مالت إلى شىء من اللهو والتسلية ! ولا يزال بنفسه على هذا حتى يطمئن إلى أنه قد صار خطيباً متمكناً ومدرهاً بليغاً ، فيخرج إلى الجمعية العمومية ويتخذ مكانه ، ويتحين كل فرصة للحديث فيبادرها وينهض ويأخذ فى الكلام .

تُرى ما الذى يبعث الناس على السخر منه والتعقيب على حديثه بالتهامس والغمز ؟ بل ما الذى يبعث أعضاء الجمعية على الإعراض عن الفتى الخطيب وإسكاته قسراً ؟ لقد فارقته عجمة اللسان ونفض عن صوته الاضطراب ، فما السبب فى هذا يا ترى ؟ إنه ليطيل التفكير فى هذا ولا يكاد يهتدى إلى أسبابه ..

حتى إذا كاد اليأس أن يستبد بنفسه ، لقيه فى بعض الطريق صديقه الممثل ساتيروس وقد أحزنته خيبة صاحبه ، فهم به يلاحقه ، حتى إذا أدركه استمهله وسأله أمره ، فانفجر ديموستين يشكو له مصيبته ، ويطلب إليه أن ينصفه وأن يصدقه رأيه ، ويسأله : ألستُ أذكى الخطباء وأوسعهم علماً وأدقهم فهماً ؟ أليس يبدو لك ما تكلفتُ من جهد ، وما حملت من مشقة ، وما تجشمت من عسر حتى أدركت هذه المرتبة ؟ فمالى يا أخى يلاحقنى الفشل ولا أكـاد أظفر من إعجاب الناس بقليل أو كثير ؟ فيجيبه صديقه : « أجل ياديموستين ، وأنا أعرف موضع النقص فى فنك ، وإننى لمعالجك حتى تخلص مما يقعد بك

عن مطلبك » . ثم ينصرفان إلى الدار ، وهناك يطلب الممثل من الخطيب أن يتلو أمامه بضعة أبيات من يوريبيديس أو سوفوكليس ، فيلقيها الفتى ، فينهض الممثل ويأخذ فى تصحيح الأخطاء وتصويب العبارات وتهذيب الإشارات وتقويم المنطق . ولا يزال به يزوره ويعلمه ، حتى يخلص به من عيوبه أو يكاد ، ويصبح الفتى أعجوبة الزمان فصاحة وبياناً.

* * *

فى تلك الأيام كانت الأقدار تبيت للإغريق أمراً عظيماً ، وتعد العدة لتمتحنهم امتحاناً جديداً . كانت تنفخ فى أهل مقدونيا وتقيمهم من نومهم لتبعثهم على الإغريق حرباً ودماراً ، وكان أمر مقدونيا قد انتهى إلى فيليب أبى الإسكندر ، فأغراه ضعف اليونان بالعدوان عليهم وامتلاك بلادهم ، وكان أمر هذه البلاد قد انحط وضعف بعد إذ تفككت أحلاف شعوبها ، واشتدت الخصومة بين أبنائها : عَدَت أثينا على إسبرطة ، وعدت إسبرطة على أثينا ، ونهض أبامنداس الطيبى فعصف بالاثنتين بجيشه الجديد الذى أحدث به فى عالم الحرب انقلاباً كبيراً . وكان فيليب قد أخذ الحرب عن هذا القائد الطيبى ، فأحسن تأثر أستاذه وأقام فى مقدونية جيشاً شديد البأس أرهب به الإغريق وذهب يتهددهم ببأسه يوماً بعد يوم . وأدرك الخوف الولايات فتسارعت تعلن الطاعة للمقدونى القاهر ، حتى أثينا نفسها لم تخل من ضعفاء يرون فى الزلفى للمستبد لوناً من ألوان السلامة فى هذه الدنيا.

ورضى فيليب عن هذه الطاعة التى بـذلها له الناس مسلمين ، فبعث رسله ومندوبيه يتلقون الطاعة ويجمعون الجزية ، وأصبح الإغريق الأحرار عبيداً كغيرهم من الشعوب التى كانوا يركبونها بالسخر ويحملونها كل مهانة .

كان ديموستين ساخطاً أشد السخط على هذا الأمر ، فقد عاش طول حياته ـ حتى الساعة ـ على قمة الحرية السامقة كأنه طير فى فضاء الله ، وكان قد بذل هذا الجهد ليجعل من نفسه صرحاً من صروح العدل يدافع عنه إذا مال ميزانه ، فمادت به الأرض حين وجد أن الدنيا لن تسمح له بالعيش فيها بعد الساعة إلا عبداً ذليلاً كغيره من بنى وطنه ، وأصبح

لزاماً عليه أن يحنى الرأس للقاهر المتجبر ، وأن يمشى فى ركابه وأن يضع منطقه وبيانه فى خدمته . ضاقت نفسه بذلك ونفرت تطلب النهوض بالوطن المهيض ، ولكنه لم يكد يبدأ فى هذا حتى وجد نفسه وحيداً فريداً لا يكاد يردد دعاءه أحد .

كان نجم الحرية الإغريقية قد أفل وتولى ، وقد هرمت النفوس وتولاها الإعياء ، فاستوى عندها العيش فى ظلال الحرية أو تحت أثقال العبودية . ولكن ديموستين يخفّ رغم ذلك إلى الجمعية العمومية ، ويقوم فى قومه خطيباً يريد أن يستنهض الهمم ، ولكنه كان يقف وحيداً فى ركن من أركانها يهاجم فيليب المقدونى ، فلما مات وخلفه الإسكندر تصدى له بنفس الهمة والشجاعة ، ثم رأى بعض الخطباء من مواطنيه ينضوون تحت لواء الغاصب ويضعون ألسنتهم فى خدمته : يدافعون عنه ويتملقونه ويرجون الإغريق أن يخفضوا له الهامات ، وأن يسيروا فى ركابه سير الطائع الممتثل ، فاهتاجه ذلك وأخذ يهاجم ذلك الفتى المتوفز الذى يتصدى لزعامة الدنيا ، والذى وقر فى نفسه أن أحداً من الناس لن يجرؤ على رفع رأسه أمامه .

وقف ديموستين وحده يعادى الخطباء جميعاً ، ويهاجمهم واحداً بعد واحد ، ويأخذ عليهم تخاذلهم عن الوطن فى ساعة اشتدت عليه فيها الخطوب ، ومضوا يحاولون مجادلته فلم يستطيعوا له دفعاً ، وأصر على مهاجمة المقدونيين إصرار من باع نفسه واستوى عنده الموت والحياة . وأخذ القلق يساور أصدقاءه على مصيره ، فمضوا إليه يرجونه أن يكف عن هذا السعى نحو الموت ، ويؤكدون له ألا خير فى هذا الجهد يبذله ، فقد خبت النيران فى قلوب اليونان وما عادوا يطلبون غير العافية ، بل هم يعرضون عليه المال فلا يرضى ، ولا ينفك يأخذ مكانه فى الجمعية كل يوم ، ويلقى كلماته القاسية يهاجم بها المستبد ويستثير الحمية الراقدة فى نفوس مواطنيه ، حتى يترامى خبره إلى الإسكندر فى بلاطه ، فيعجب به إعجاب بطل ببطل ، ويطرب لأحاديثه ويستزيد منها ، ويتسامع بأمره كسرى فارس فيبعث له الهدايا والرسل يؤيده ويشد أزره .

ولا يزال الرجل فى ذلك حتى يكتب الله له التوفيق فيما طلب ، فيأخذ الإغريق يتناهضون لترديد دعواه ، ويتداعون للسير معه ، ويتحدث خطباؤهم بالثورة يهيبون بقومهم

إليها ، وإن الحمية لتعود إلى القلوب الساكنة ، وإن ثبات الإيمان ليعود إلى النفوس الحائرة ، وما هى إلا شهور حتى نشهد أهل أثينا على ماشهدناهم عليه أيام غزوة الفرس : شجعاناً يخفون إلى الميدان سراعاً ، ومقاتلين يسرعون إلى الوغى خفافاً . ولا يكاد إخوانهم فى إسبرطة يتسامعون بالأمر حتى يمدوا سواعدهم ويلبّوا سعداء هذا النداء ، ولا يكاد أترابهم فى الجزائر والجبال والوديان يظهرون على الأمر حتى يقبلوا معجلين ، ويكتمل لديموستين منهم جيش قوى عزيز ، يمضى معه إلى حيث يلقى الإسكندر الفاتح العظيم .

ولكن عز الإغريق كان قد تولى ، وأيامهم الغر كانت قد ذهبت مع أمس الدابر ، وابتدأت الآلهة تتوجه بحبها وعنايتها إلى الشمال ، إلى مقدونية وفتاها المجيد إسكندر . ولم يكن بد من أن ينتصر الإسكندر على ديموستين ، فلم يكن هذا بالقائد القادر ! . انتصر الإسكندر العبقرى الذى فتحت الدنيا على مقدمه كتاباً مجيداً ، ولا مفر لديموستين من أن يودع أجناده المنهزمين فى ساحة خايرونيا .

طبيعى بعد هذا أن يشقى ديموستين ، وأن يطلبه الغالب ويجد فى طلبه ؛ بل تزيده الأيام نكاية : ينقلب قومه عليه ويقدمونه للمحاكمة ، ويجتمع عليه الأعداء ممن يؤلبهم الإسكندر من كل صوب ، ولكن الرجل يستعين عليهم ببلاغته ويخذلهم عما يريدون ، ويخرج من المحاكمة نقى الصفحة برىء الساحة .

ولكن الإسكندر لا يسكت عنه ، إنه يطلب إلى الأثينيين أن يبعثوا إليه ثمانية من خطبائهم ليكونوا فى ركابه وحشمه وعدته وعتاده ، ويسرع الضعاف من أمثال بوليوكتس وأقيالتس وليكَرْجَس إلى الملك الشاب يبذلون له الطاعة ويطامنون مواهبهم أمامه . إلا ديموستين ! فقد أبى الذهاب على رغم إصرار الإسكندر وطلبه إياه بالذات ! .

وعرف الرجل أن منيته قد أوشكت ، فذهب إلى كالدونيا ، وجلس هناك ينتظر رسل الإسكندر . ولم يطل به الانتظار ، فقد أقبلت الجنود إليه فى معتزله .

ها هو ذا قائدهم أركياس ينقر الباب ويدخل ، ويطلب إلى ديموستين أحد أمرين : إما الموت وإما طاعة الإسكندر ، ويرفض الرجل . ويلح القائد عليه ، فيصر إصراراً بالغاً . فإذا يئس منه ، استدار وتركه يفكر .

هنالك طلب ديموستين صفحة يكتب فيها شيئاً لأهله ، ثم يغافل القوم فيخرج قارورة فيها سم فيتناوله ، ثم يرفع رأسه فيقول وهو يضحك :

ـ والآن يا أركياس ! تستطيع أن تأخذنى إلى حيث شئت ، بل ها أنا أسير معك ..

ويمضى .. حتى إذا أدرك الباب تعثرت قدماه واضطرب كيانه ، ثم .. خر شهيداً !

اسكندر العظيم

٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م

كيف استطاع هذا الحَدَث الصغير أن يقهر الإغريق ؟ وكيف تأتى لهذا الناشىء الرقيق أن يغلب ذلك الشعب الذى لم يغلبه غالب ولم يخضعه سلطان ؟ . هكذا كان الناس يتحدثون حين انتهى عرش مقدونيا إلى الإسكندر بن فيليب ، وكان هذا الملك الجديد يخطو من السادسة عشرة إلى السابعة عشرة ، وكان أبوه قد أساء إلى الدولة وزعزع ثقة الناس فيها ..

كان طاغية منهوماً فى كل شىء ، وكان شرهه إلى النساء أضعف نواحى نفسه ، ولو أن زوجته أوليمبياس كانت كغيرها من نساء ذلك الزمان هدوء طبع وإسلام قياد لما نجم عن ذلك النهم ضرر كبير ، ولكنها كانت أميرة عزيزة النفس بعيدة الهمة ، لا تكاد تطيق أن يتخذ زوجها عليها أخريات ، فمضت تلومه أمام الناس ، حتى كرهها هو ، وأبغضها خلال السوء المحيطون به ، وبدأت ألسنتهم ترميها نكاية فيها . ثم بدا لفيليب أن يتزوج ابنة أحد قواده المقربين ، وكانت فتاة يافعة ذات حسن اسمها كليوباترة ، ولم تجد أوليمبياس وسيلة توقفه بها عند حده ، فكان له ما أراد ..

وأقيم حفل الزفاف وسالت فيه الخمر أنهاراً ، وأقبل والد العروس يربت ظهرها ويرجو الآلهة أن ترزق فيليب منها ابنا « شرعياً » . وكان الإسكندر على مقربة منه ، فأحس أن القائد المخمور يلمزه ويهمز أمه أوليمبياس ، فألقى بالكأس فى وجهه . واستشاط الأب المخمور غضباً حمية لصهره ، فنهض بالسيف يريد أن يخترق صدر ابنه ! ولكنه لم يكد يخطو حتى دارت رأسه بالخمر ، فوقع يتدحرج ، وصاح الإسكندر والدمع فى عينيه : انظروا إلى الرجل الذى يريد أن يعبر من أوربا إلى آسيا وهو لا يستطيع الانتقال من مقعد إلى مقعد !

وما كانت أوليمبياس لتسكت لفيليب عن هذا . لقد انضاف إلى جرح كرامتها خوف على العرش أن يفلت من يد ابنها الحبيب . وكان الله قد سواها من طراز لذاتها المقدونيات، وكن فيما يعرف التاريخ أكثر بنات حواء استهتاراً وأبعدهن مدى فى طريق الجناية ، فما زالت أوليمبياس تطوى نفسها على الخوف المستبد والجرح المتجدد ، حتى تمكنت من فيليب عشية رحيله فى غزوته الكبرى نحو آسيا ، فما كاد يبتعد عن حراسه حتى عاجله رجل بخنجر مزق به صدره ، وتقدمت الملكة القادرة فى دهش من الناس بعد ذلك بأيام ، ورفعت التاج على جبين ابنها العزيز !

وتلفَّت الإغريق وتنفسوا الصعداء . لقد زال عنهم كابوس فيليب وجيوشه ، وارتدت إليهم حريتهم بعد طول عناء . بدأت أثينا تستعيد مجدها ، وإسبرطة تنادى جندها ، وطيبة تنهض من مهدها ، ونظر أشراف مقدونيا فإذا الأمر مضطرب فى كل مكان ، وأحبوا أن يدعوا الأمور تجرى فى أعنتها ، وليذهب المجد من حيث جاء ! ولكن الفتى الصغير أبى وأقسم ليكونن مثل أبيه ، بل خيراً منه وأبقى ، وليؤدبن الطاغى والعاصى ، وليردَّن إلى الطاعة كل مستهتر جاهل ، وليرين الناس أن فتى قام على تربيته أرسطو وأخذ فن الحرب عن أبا منتداس ووهبته المقادير ذهناً صافياً ونفساً بعيدة المطامح ، لا يعدم فى سماء العلا موضعاً ! ..

ومن ثم أعلن الإغريق كلهم يطلب طاعتهم ويعلمهم أن الأمر باق على ماهو عليه ، وأن رعية أبيه رعيته ، وويل لمن أضله الشيطان ! . هنا ثار الإغريق كلهم ، وأجمعوا أمرهم ودبروا تدبيرهم ، واندفقت جحافلهم لتؤدب الفتى الصغير . وأسرع هو إليهم حتى لاقاهم فى معركة بعد معركة ، وهنا رأوا أمراً عجيباً : هذا الفتى الصغير يقود الجند قيادة ساحر ، ويصرف الأمر تصريف ماهر ، فما هى إلا هجمة هنا ولفة من هناك ، وتقهقر فى اليمين ودفع فى القلب ، حتى يرى الإغريق أنفسهم فى ويل ، وإذا الذى نجا منهم يحمد الله على أن لم يقع فى الأسر ، والذى وقع فى الأسر يحمد للإسكندر نعمة الحياة .

فلم يكد الإغريق يرونه كذلك حتى أخذوا بما كان يبديه من مظاهر النبوغ ، فهو لايلقى بجنده فى المعمعة مغمض العينين ، وإنما يطيل التفكير ويحكم الخطة ، فلا يضحى

بجندى من غير ثمن . وما زالوا يرمونه بخير رجالهم ويرميهم بخير رجاله ، حتى هدم آخر معاقلهم فى خايرونيا ، من ظواهر طيبة ، هزيمة ردت عقولهم إلى رءوسهم ، فعادوا إلى الرشاد وعرفوا أن الفتى ليس غازياً يطلب الحرب ، وإنما هو بطل يخطب الأبطال ويرجو أن ينظمهم فى صف واحد يمضى لقهر الطواغيت ونشر النور .

من هذا اليوم علمت يونان من هو هذا الفتى الصغير ، ووقع الخوف فى نفوسها من أن يسعى المنتصر للثأر من رجالها ، ولكنه أخلف ظنونها وفعل أمراً عجبا . لقد دعا الإغريق إلى كلمة سواء ، وأعلن فيهم أنه لا يرجو إلا صلاحهم ورفعة كل ماهو إغريقى ، بل لقد أكد لهم أنه أخوهم وواحد منهم ، وأنه يدعوهم للإنضواء تحت رايته ليقودهم إلى آسيا للانتقام من فارس والأخذ بثأر اليونان منها ..

هنالك أدرك المنكرون أن هذا الفتى إنسان عظيم .. أن وطنيته الإغريقية تطغى على أحقاد نفسه ، وأن إيمانه بقيمة الحضارة الإغريقية ونفعها للإنسانية كلها يعلو على إيمانه بقيمة الفتح ومجد النصر فى الميادين ، فهو يريد أن يكرس هذه العبقرية ليثأر للإغريق الذين آذوه بالأمس وأعلنوا عليه حرباً كادت تودى به وهو بعد ناشىء صغير ، لأنه يعتقد أن حضارتهم حضارة إنسانية جليلة ينبغى أن تذاع فى الناس ، فمن قبلها طائعاً فطوبى له، ومن أبى فلا مفر له من السيف . وسنرى أنفسنا حيارى بعد الفراغ من ذكر هذا الرجل: ترى كيف كان يصير لو أن الموت لم يعاجله وهو بعد فى ضحى العمر .. فى الثانية والثلاثين ؟

بدأ الإسكندر سيره فى المغامرة التى لم يرو التاريخ مثلها فى ربيع سنة ٣٣٤ قبل الميلاد ، وكان رجاء الفتى فى الفتح والغلب من القوة بحيث تروى عنه الأساطير أنه رتب شؤون الدولة فى غيابه ، فوزع الإدارات على الصالحين من الرجال ، وعهد فى كل قسم من مقدونيا وأملاكها إلى رجل من رجاله ، وبقى هو آخر الأمر من غير شىء ، فقال له صاحبه برديكاس : وأنت ماذا يبقى لك ؟ فقال : الأمل ! ثم نظر إلى أصحابه وقال : « نحن الذاهبين إلى الغزو لا ينبغى أن نطمع فى أكثر من جزء من هذا الأمل ! دعوا الأرض يا رفاق وسيروا فى ركب الآمال ! ..

بدأ فعبر الدردنيل بجيشه الصغير ، وهبط آسيا وتقدم آمناً واثقاً ، وكانت عبقرية هذا الفتى تتجلى فى أمور : الدقة التامة فى العمل ، والتفكير والتقدير ، ثم الجرأة والإقدام . وتسامع الفرس بمسيره إليهم فلم يحفلوا كثيراً . وكان ملكهم « دارا كودومانوس » أميراً لينا سهلاً ، بعيداً عن القدرة على النهوض فى وجه الفتى العبقرى المقبل عليه ، ولم يكن هو أو أحد من أهل بلاطه ليتوقعوا شراً كثيراً ، فقد كانت الدولة مترامية الأطراف ، وكان جندها أسراباً كقطع الليل ، لو جمعت ورصت رصاً لسدت منافذ الأرض فى وجه الشرذمة الإغريقية المقبلة ، وكانت لهم الأساطيل ودور الصناعات على كل ساحل ؛ ولكن فاتهم أن الجند بغير قائد لا يدركون فى الميدان نصراً ، وأن المال الوفير لا يجدى من غير تدبير ..

وكان من سوء طالعهم أن المقادير ساقت إليهم هذه المرة قائداً كأمهر ما يكون القواد ، ومدبراً كأحسن ما يكون المدبرون ، وفاتهم كذلك أن قائد الإغريق هذه المرة ليس قائداً مفتوناً يقبل للحرب والخراب ، وإنما إنساناً يحمل فى ركابه النور ، وأن بلادهم ستجنى من الهزيمة خيراً هو أبقى لها من عشرات الانتصارات ، وأن حضارتها ستبهر الغازى وتغزوه وترغمه على أن يحنى الرأس إجلالاً لمجد فارس العظيم ! .

ريع الفرس إذ رأوا الإسكندر يتقدم فى آسيا الصغرى ، فأسرعوا فجمعوا له جيشاً كبيراً ، ولبثوا ينتظرونه على ضفاف نهر « غرانيق » ، وهو نهر صغير يصب فى البحر الأسود . ولم يكن للإسكندر معدى عن أن يعبر النهر للقائهم ، وقد بدا لكبير قواده أن ينصحه بأن ينتظر حتى فجر اليوم التالى ليعبر والفرس عنه فى شغل ، فقال الإسكندر بهذه اللهجة التى تنطق عن العزة والثقة : « عبرتُ الهِلِسْبوُنت (البوسفور) دون خوف ، ثم أجىء إلى جدول كهذا فأتردد وأنتظر الفرصة المواتية ؟ امض بنا يا رجل ! » . ومضى فعبر النهر فى مواجهة العدو دون أن يستطيع أحد إيقافه ! .

ثم بدأت المعركة فخاضها الإسكندر بنفسه فى مقدمة جنده ، يحارب بسلاحه كغيره من الجند والقادة . وكان ذلك دأبه : يرتب الجند ، ويرسم الخطة ، ويعهد إلى كل قائد بما يعمله، ثم يمضى هو فى المقدمة .. وكان قد درس أساليب الحرب على أنبغ منظم ومدرب عسكرى أنجبه العالم القديم وهو أبامنداس الطيبى العظيم ، وكانت جنوده منظمة هذا

النظام البديع الدقيق الذى هو فضل الغرب على الشرق فى كل ميادين الحياة ، ثم إن دارا كان قد ارتكب الخطأ الأبدى الذى لا زال المشارقة يرتكبونه : سوء الظن بالقادة ، وبدلاً من أن يعهد بالأمر إلى القائد الكبير « ممنون الرودى » ، وزع الأمر بين قادة الفرق حتى يطمئن إلى أن أحدهم لن يثب عليه بالجند ؛ فكانت النتيجة أن تفرق الأمر جملة بين تخوف القادة وتخوف العاهل ..

والتقى الجمعان فكانت خسارة الفرس بالغة ، ولم يلبث فرسانهم أن تفرقوا ومضوا يطلبون النجاة ، يرجفون بخبر الهزيمة إلى دارا ، فأثاره كل مثار ، وملكه الخوف من هذا الفتى المقبل ، فنهض من مجلسه ، ونادى رجال حربه ، وأهاب بهم أن : هلموا نرد هذا الفتى ، فلعله يحمل إلينا الموت !

ومضى الإسكندر بجيشه الصغير يخضع ولايات آسيا الصغرى ، ما خضع منها لفارس وما لم يخضع لها ، وكانت أثينا وإسبرطة وطيبة وغيرها من ولايات الإغريق قد أدركتها الغيرة، وناش قلوب أهلها الحسد من هذا التوفيق الذى قسمته المقادير لهذا المقدونى المجدود ، فبدأوا يدبرون له وينقلبون عليه ، فأخذ يحترز منهم ويتوقى شرور عمالهم وأتباعهم فى آسيا الصغرى . وقد كلفه ذلك عناء كبيراً ، ولو أنهم كانوا معه بقلوبهم لخلص لصراع عدوه الكبير ، ولكنه كان كنابليون : يقاتل العدو فى الخارج ، ويحاذر الخونة فى الداخل !

خرج الفاتح الشاب من آسيا الصغرى ، وبدأ يأخذ الأهبة لينفذ إلى سهول الشام لكى يفضى بعد ذلك إلى بلاد الجزيرة قلب الدولة الفارسية وموقع عاصمتها كتزيفون ، فلم يكد دارا يعلم بذلك حتى سارع وجمع جنده فى سهل « إيسوس » - على مقربة من موقع الإسكندرونة اليوم . وكان اختيار دارا لهذا الموقع موفقاً ، لأنه سهل فسيح يستطيع أن يفيد فيه من جموعه الحافلة ، ولو قد ثبت فيه لكسب المعركة ، ولكن سوء حظه غلب ! . فما هو إلا أن سمع بأن الإسكندر خلف حامية فى مدينة إيسوس ومضى لوجهه ، حتى جمع جنده ومضى بهم فحشرهم فى خوانق الجبال ليضع يده على البلدة الصغيرة . وما كان أسعد الإسكندر بمثل هذا النبأ ! لقد فطن بفطرته الهادية إلى أن عدوه نضا عن نفسه أحصن دروعه ، وهكذا أقبل الإسكندر مسرعاً بجنوده .

والتقى الجمعان ، فلم يستطع دارا أن يستفيد من جموعه فى خوانق الجبل ، وأذهلته عبقرية الإسكندر ، فصبر على القتال حيناً تهاوى فيه خيار جنوده ، فأدار ظهره وولى مدبراً، تاركاً قبته وفيها كنوزه وأمه وزوجه وأبناؤه .. وطارده الإسكندر ثم عاد إلى مكان المعركة ، ونزل سرادق كسرى ، فلم يكد الليل يجن حتى سمع عويلاً يتهدهد إلى أذنيه من قرب ، فسأل عنه فقيل له : « أولئك آل دارا .. تسامعوا بأنك عدت من مطاردته بسيفه وطيلسانه ، فحسبوك قتلته » . فبعث إليهن بعض رجاله يطمئنونهن ويؤكدون لهن أنهن مكرمات ما عشن كما كن فى حياة دارا ! .. ولو أن غيره ـ فى سنه وفى نصره ـ كان مكانه لمالت نفسه إلى حريم الملك الهارب ، لاسيما وفيهن ستاتيرا زوج دارا ، وهى سيدة شابة جرت بذكر جمالها الركبان ، ولكن الإسكندر كان قد أخذ الحكمة عن أرسطو ، ومن ألم من الحكمة بأيسر طرف أدرك أن الشهوات مهاوى الرجال ! .

وكان انتصار الإسكندر على دارا انتصاراً حاسماً بعيد المدى ، فمن ذلك الحين سكنت ريح الشرق ، واطمأنت بلاده إلى نوم عميق استولى على كيانها ، حتى صرخ العرب صرختهم المدوية بعد ذلك بألف عام .. لهذا كانت معركة « إيسوس » من معارك التاريخ الفاصلة ، ولهذا يبدأ المؤرخون بها عهداً جديداً ، ولهذا هلل لها مؤرخو القديم وأطنب اليونان فى ذكرها إطناباً بالغاً ، واعتبرها المؤرخون الأوروبيون ختام صراع طويل دام بضعة آلاف من السنين بين الشرق والغرب فى العصر القديم .

وتلكم أوهام وضلالات اخترعها مؤرخو العصر الحديث ولم يكن يؤمن بها أو يقولها فى القديم أحد ، فلم يكن أحد من أهل القديم يعرف هذه التفرقة العصبية بين الشرق والغرب . بل كان اليونان أنفسهم ، وهم ممثلو الغرب فى أعين هؤلاء المؤرخين أعداء للإسكندر لا يرون إلا أنه أجنبى ساقهم بعصاه ، وكانوا ـ فى كثير من أدوار هذا النزاع بين الإسكندر وفارس ـ من أحلاف فارس ، يتمنون لو انتصرت على هذا المقدونى العنيد . بل كان الإسكندر نفسه لا يكاد يعد نفسه يونانياً وإن تحدث بذلك ، إذ كان منصرفاً إلى إزالة الفوارق بين الناس وإزالة العصبيات من النفوس ، فكان شامياً فى الشام ، ومصرياً فى مصر ، وفارسياً فى فارس . وتلك هى ميزته الكبرى التى ترفعه فوق قيصر وغيره من كبار القواد !

وانحدر الإسكندر يفتح بلاد الشام ، فسقطت فى يده معظم بلدانها دون كبير عناء خلا «صُورْ» إذ صمد له أهلها ستة شهور يصاولونه ويصاولهم ، ويحاول أن يضع يده على بلدهم فلا يرتد إلا بالخسارة ، حتى كاد يستيئس من قهرهم لما كانوا يبدونه من ضروب الوطنية والتفانى فى سبيل وطنهم العزيز . ولو قد ثبتت « صيدا » و « أرادوس » إلى جانب صور ، لعجز الإسكندر عن إرغام لبنان القديم على الطاعة ، ولكن ما الحيلة والأنانية من طباع الناس ؟ .. وماذا كان يجدى صيدا ثباتها إذا تخونتها حليفتاها ؟ لقد بذل أهلها من الجهد مالم يبذله أعداء الإسكندر مجتمعين ، ولكنها انتهت إلى التسليم فى يوليو سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

وفى هذه الفترة وصلته سفارة من دارا ، تعرض عليه نصف دولة الفرس ، ويد ابنة دارا نفسه ثمناً لحلف بين الجانبين ، فصفق لذلك بارمينيو أحد قواد الإسكندر ، وقال : « لو كنت الإسكندر لقبلت » ! فابتسم الإسكندر وقال له « وأنا لو كنت بارمينيو لقبلت . ! » ، وأبى الصلح ورد الرسل وهو يقول : « قولوا لدارا إن البلاد كلها للإسكندر ، ولكنه لا يأبى على دارا شيئاً ، ولو أقبل دارا بنفسه يطلب ما يريد ما رددناه » .

ثم أقبل الإسكندر إلى مصر مسالماً لا غازياً ، فقد كان المصريون إذ ذاك فى ربقة الفرس يبغون التخلص من هؤلاء المستبدين الأسيويين ، الذين لم يغادروا شيئاً يحفظ أهل الوادى إلا ارتكبوه . ولم تخضع مصر وحدها لهؤلاء الفرس بل خضع لهم أهل الشام وإغريق آسيا الصغرى ، وكان إغريق بلاد اليونان أنفسهم يرجفون منهم ويحالفون المصريين عليهم ، فلما دحر الإسكندر الفرس وأقبل إلى وادى النيل اعتبره المصريون حليفاً أقبل يعينهم على هؤلاء المستبدين .

وقد أقبل الإسكندر فى الحق كذلك ، لم يرفع فى وجه المصريين سلاحاً ولم يرفعوا فى حربه بدأ ، وما إن وطئت قدمه البلاد حتى أقبل على أقداس المصريين يقرب لها ويبدى فى رحابها من مظاهر الاحترام ما كان يبديه نحو أقداس الإغريق . ولا غرابة فى هذا ، فقد كانت آلهة مصر آلهة للإغريق فى ذلك الحين : كان الناس فى ولايات إليس وإسبرطة وأثينا يقدسون آمون ، وكانت ألوف منهم تخف إلى معبده فى سيوه تستشيره وتقرب له ، وكان هذا المعبد

ثالث ثلاثة هى أقدس ما عرفه الناس فى العهد القديم : معبد إيزيس فى دودونا ، ومعبد أبولو فى دلفى ، ومعبد آمون فى سيوه .

عبر الإسكندر بشمال مصر صديقاً كريماً ، وأزال حكم الفرس وخلف البلاد فى حكم مصريين خُلَّص ، أو أجانب متمصرين من أهل البلاد ، واختط الإسكندرية لتكون أخلد رمز لما انعقد آنذاك من ولاء بين الإغريق والمصريين . لم يكد أساسها يستقر حتى تعاون الفريقان على النهوض بها ، فلم تلبث أن أصبحت بعد قليل قطب رحى الدنيا وزينة العالمين ، اختلطت فى رحابها حضارة الأبد المصرى البعيد وحضارة الهيلينيين ، فكانت ثمرة ذلك الاختلاط هذه الإسكندرية الزاهرة التى انتهت إليها زعامة الدنيا فى العلم والعرفان قروناً بعد قرون !

وبارح الإسكندر مصر تحيط به هالة من جلال آمون ، وكان الإسكندر يعرف معنى هذا الشرف الذى خلعه عليه كهنة آمون ، فأمر بألا ترسم صورته بعد ذلك إلا مزينة بقربى الكبش المقدس رمز آمون ، وارتبط اسم الإسكندر من ذلك الحين بهذا الرمز المصرى حتى أصبح يعرف فى الروايات الشرقية باسم الإسكندر ذى القرنين .. دخل الإسكندر مصر إنساناً وخرج منها فرعوناً وابن إله ! فلم تلبث المدن الإغريقية أن رفعته إلى مصاف الآلهة ، وهكذا أضفت مصر على هذا الفاتح الشاب من جلالها مالم يهبه إياه بلد آخر ، وما نحسب الإسكندر إلا رعى للمصريين ذلك ، فقد ظل طول حياته صديقاً كريماً لهم ، لم ينل أحداً من أهل مصر بمكروه ، ولم يلق من جانب المصريين إلا كل ما يرضى ، وكان ذكر الإسكندرية أحبَّ الأشياء إلى نفسه ، حتى لقد زعموا أنه كان ينوى أن يعود إليها بعد الفراغ من غزوته الكبرى لكى يجعل منها عاصمته وعاصمة الدنيا .

وبارح الإسكندر مصر في مطالع سنة ٣٣١ قبل الميلاد ووجهته فارس ، ليلقى ملكها دارا فى موقعة فاصلة تختم هذا الصراع الأبدى الذى طال أمده بين الفرس والإغريق . وكانت قوات دارا قد انكسرت فى معركتين كبيرتين ، ولكنها كانت ما تزال قائمة ، وكانت فى استطاعة دارا أن يجند آلافاً من الجند من ولاياته الأسيوية ، وأن يجهزهم بخير العتاد من ثروة الإمبراطورية التى لا تنتهى . ولم يكن بقاء دارا يضير الإسكندر فى شىء ، ولكنه كان

يؤمن بأن العالم كله ينبغى أن يكون دولة واحدة ، وكان يعتقد أن أمر هذه الدولة لايصلح إلا به ، لأن نفسه لم تكن لتحفل بعصبية ، وكانت تجاربُه مع الإغريق قد زهدته فيهم ، بل بغضتهم إليه ، وكان خيرة رجاله وكبار جنده خليطاً من كل جنس ..

كان فيهم من آسيا الصغرى ، وفيهم من الشام ، وفيهم من مقدونيا ، ولم يكن تعلقه بالتراث الإغريقى إلا تعلقاً بحضارة الإغريق لا عصبية لجنسهم ، وإيماناً بأن عناصر هذه الحضارة كفيلة بتحقيق الوحدة الإنسانية المأمولة ، وكان احتكاكه بأهل الشرق وحضاراتهم مشجعاً له على المضى فى تحقيق هذا المطلب ، فقد رأى أنهم كالإغريق ناس ذوو حضارات وفلسفات ، ومن ثم تخلى عن كثير مما كان صغار الأحلام من الإغريق يوهمونه به من أن هناك جنساً شرقياً خاصاً وجنساً يونانياً متميزاً ... وأن اليونانى أرفع وأعظم .

ويقص الرواة أنه كان مرة على أسوار صور يوالى الحصار ويعجب من صلابة أهل هذا البلد الصغير ، فمر به راهب مصرى ، فسأله : ما تقول آلهتك فى هذا البلد .. ومتى سنفتحه ؟ فنظر الراهب إليه طويلاً ثم قال : « آلهتى تقول : يا إسكندر .. إن كنت تريد فتح هذا البلد لتخريبه وإيذاء أهله فلن تفتحه أبداً ! وإن كنت تريد خير أهله لفتح لك مصاريعه من نفسه ، فسل قلبك ! » فاستعبر القائد الفيلسوف الشاب وقال : « رحمك الله يا أرسطو ... لم تعرف هؤلاء الذين حططت من قدرهم كما عرفتهم أنا اليوم » .

التقى الإسكندر بجيوش دارا لآخر مرة عند « جاوْجَا ميلا » ، وكان دارا على ما يقال فى ألف ألف ، ولكن الإسكندر لم يضطرب لمرأى هذا الجحفل اللجب ، وجعل يدير المعركة فى حنكة وصبر ، حتى إذا أمكنته الفرصة كر بخيله فاقتلع دارا من مركزه ، وشاع الاضطراب فى صفوف الفرس وولى الهرب منهم من استطاع ، ومضى دارا لايكاد يلوى على شىء فتتبعه الإسكندر حتى إرْبِل ، ثم عاد فدخل بابل .. وفى أوائل سنة ٣٣٠ دخل عاصمتى فارس وهما مدينتا : سُوسا وبرسو بوليس (أى مدينة الفرس) .

وهكذا استقر له الأمر على عرش الأكاسرة ، فلم ينهب ولم يسلب ، وإنما تزوج ابنة كسرى واسمها ركسانا ، ونادى بقواده ورجاله وأمرهم بأن يتزوجوا من الفارسيات حتى يتم الاختلاط بين الشرق والغرب ، وحتى تختفى أوضار الشعوبية وسخائم العصبية ، فى رحاب الإنسانية الشاملة ! .

ثم عبر الدجلة وأفضى إلى هضاب إيران فاخترقها خفيفاً سريعاً فى جرأة لا تكاد توصف ، ويحدث الأدلاء الذين ساروا فى طلائعه بأنه كان يسير فى هذه المهامه المعطبة وكأنه قد قضى حياته كلها فى النواحى . وتلك كانت إحدى هباته الكبرى ، كان يحسن تصور الأرض ويحسن تقدير حركاته فى بطاحها ، ولو أن غيره كان مكانه لضل وانتهى أمره إلى بوار .

وانتهى إلى بلوخستان فهاله ما وجد فيها من إقفار ووحشة ، وأحب أن يفيض فيها بعض الأنس ، فأمر ببناء مدينة سميت « الإسكندرية » أيضاً ، فبدأ الأنس يعمر هذه الفلوات ، وابتدأت الحضارة تخطو فيها على مهل . ثم مضى حتى أشرف على البنجاب ونهر السند فعبره ، وأخذ يتقدم فى هذا السهل الفسيح الذى لم يصله من الغرب قبل ذلك أحد ، ونظر أصحاب الإسكندر إلى ورائهم فهالتهم الأباطح التى مضت بهم أقدامهم فى أطوائها، واستشعروا الخوف أن وجدوا أنفسهم فى آخر الدنيا ، وأنهم يمضون نحو آفاق مظلمة ربما تخاطفتهم فيها السباع والوحوش والناس ، ونظروا فإذا الهند عالم حافل يفيض بالناس ، وتقدم واحد منهم إلى القائد السعيد بما أوتيه من فتح ، وسأله : إلى أين ؟ فقال : إلى حيث لا يبقى إنسان ! فقال الرجل : فامض وحدك إذن ، إنما نحن ناسٌ لنا أهل يعطفنا نحوهم الحنين ! .. وأحس الإسكندر خيبة الأمل فى هؤلاء الرجال ، وأحب أن يعبر لهم عن خيبة رجائه ، فأمر أن يحفروا له قبراً ، ورقد فيه وقال : « أهيلوا التراب على أبيكم فقد مات » ! وريع القوم فخجلوا وجددوا له العهد على أن يسيروا معه إلى حيث يريد ..

وبرز له من أهل الهند ملك شديد يعرف لوطنه حقه اسمه بُورُوس ، وجمع جنوده وأبطاله وانتظر الإسكندر على الضفة اليمنى لنهر هِيدَاسْبِيس فى قوة هائلة من الفيلة ، ونظر الإسكندر فإذا خيله لا تجرؤ على النظر إلى الفيلة ، وخشى إن هو عبر بها أن يدركها الخوف فتجمح وتنقلب بها السفن فى الماء ، واستشعر من بوروس ثباتاً للقائه وإصراراً على رده ، فلجأ إلى حيلة بارعة : جعل أصحاب النفير فى جيشه يطلقون النفير ، وأمر الجند أن يقبلوا ويتظاهروا بأنهم على وشك العبور ، فما أسرع ما استعد أهل الهند وتحفزوا ، فلما تم ذلك أمر الإسكندر جنده بالعودة إلى معسكرهم . وأخذ يكرر ذلك كل يوم حتى سئم الهنود الانتظار، وحسبوا أن الإسكندر يفعل ذلك كل يوم لأمر آخر غير العبور ، وجعلوا إذا

سمعوا النفير ورأوا جند العدو يقبلون إلى ضفة النهر لا يحفلون لهم ، ثقة منهم بأن الأمر واقف عند ذلك الحد ، شأنه كل يوم ..

حتى إذا كان اليوم الذى قدره الإسكندر للعبور فوجىء بوروس بالعدووقد عبر إليه واستقام معه على ضفة واحدة ، ثم دارت رحى المعركة وقد حار الإسكندر قبلها فيما عساه فاعلاً بفيلة الهند ، حتى هداه الفكر إلى حيلة بارعة ، أشار إليها ابن المقفع فى مقدمة كليلة ودمنة ، فذكر أن بوروس ساق إلى الإسكندر الجنود كأنها قطع الليل ، وأن الإسكندر هالته كثرتها وكثرة الفيلة فيها وداخله منها خوف بالغ ، فأمر أن تصنع له خيول من النحاس ، وأن تملأ أجوافها بالنفط والكبريت ، وأن توضع على عجل يجرى ، فإذا دافعت مرت سراعاً، ثم دفعت الخيل المتوهجة فى جيش الهنود ، فذعرت الفيلة وولت على وجوهها تنشر الرعب والفزع فى جيش بوروس نفسه ، وهكذا تم النصر للإسكندر العظيم ! .. ترى أيعصف الإسكندر بالبطل الهزيم ؟ لا .. إنه يرضى عنه كل الرضا ، ويستقبله أحسن استقبال ، ويرده إلى عرشه راضيًا مطمئناً .. ثم يغادره فى أمان ! .

ويجمع الإسكندر قواده ويبلغهم أنه انتوى أن يمضى بهم إلى ما يلى ذلك من رحاب الأرض ، فيروعون ، ويرجونه أن يرأف بهم وألا يبعد بهم ، فقد شط المزار وبعدت الأوطان وطالت الغيبة ، وحاول أن يقنعهم فأبوا أن يقتنعوا ، فأجابهم إلى ما يطلبون ، وبعث من يكشف له الطريق إلى خليج فارس ، ثم استعد للرجوع .

وأقلعت به السفن من شاطىء الهند إلى خليج فارس ، ومن ثم صعد إلى بابل وأخذ يستعد لغزو الغرب كما غزا الشرق ، وأمر جنده باتخاذ الأهبة بذلك .

ولكن المنية لم تمهله : أحس فى أوائل يونيو سنة ٣٣٢ بتعب مفاجىء ، فلم يمنح نفسه حقها من الراحة ، وقضى ليلة ساهرة مع كبار قواده ، وساءت حاله مع الغد ، وثقلت الحمى عليه ، وكان أولى به أن يستريح ، ولكنه قضى اليوم يدبر أمر الحملة مع قواده ، ثم أحس بعضَ التحسن مع الليل ، فمضى مع رفاقه يسمر ويتسلى ، فأصبحت حاله مع الغد لا تسمح له بالجلوس ، وأخذت الحمى تعلو ، وأخذ الموت يدنو ، حتى إذا أهل السابع والعشرون من الشهر ، أدرك كل من حوله أنه يودع الحياة ، واجتمع قواده من حوله يسألونه

فى لهفة : « اكتب لنا كتاباً .. قل .. لمن تخلف ملكك العريض ؟ » ... فابتسم العبقرى الذاهب ونظر إليهم نظرة ساخرة وقال : « كراتِستُو ! » أى « للأقوى » ! .. وكانت آخر ما قال ، وكانت حكمة لا تصدر إلا عن الإسكندر ، إذ ما الفائدة فى التقسيم والتحديد وهو يعرف أنهم محتربون بعده على تراثه ، وأن وارث الملك هو أقواهم أراد الإسكندر أم لم يرد ، كتب الإسكندر أم لم يكتب !

* * *

وبعدُ ، فهذا رجل جمع الله عليه مجد الدنيا والآخرة ، وشرفه بالذكر فى كتابه الحكيم ، ورضى عنه المؤرخون فجعلوا له بين الأبطال مكاناً ممتازاً ، وبدأوا بحياته عصراً متميزاً من أعصر الحضارة الإنسانية ، استطال حتى بلغ قروناً ثلاثة ، وسمى العصر الهيلينيستى أى الشبيه بالهيلينى . وامتاز هذا العصر بحضارة خاصة لا هى شرقية خالصة ولا غربية خالصة ، وإنما هى بَيْنَ بينَ ، فيها من هذا ومن ذاك ، وفيها هذه الفكرة الإنسانية الجليلة التى رسمها هذا الفتى : وهى أن الشرق والغرب ينبغى أن يجتمعا إلى لواء واحد وأن تسودهما حضارة واحدة ، وأن يعيش أهلهما إخوة ، لا عصبية ولا كراهية ، لا يخالف أحد أحداً فى وطن ، ولا يدابر أحد أحداً فى جِنس ، كلنا لآدم وآدم من تراب .

واليوم يجتمع الناس ، وينفضون ، وتعقد المؤتمرات وتحل ، وتعقد المعاهدات وتمزق ، ولايكاد الناس يتصالحون عاماً واحداً ، ولا يكاد الغربى ينسى عداوته للشرقى ، ولا الشرقى ينسى ثأره عند الغربى لحظة واحدة .

أليس عبقرياً هذا البطل الذى استطاع ـ وهو دون الثانية والثلاثين ـ أن يعقد بين الغرب والشرق صلحاً دام ثلاثة قرون ؟ ! .

فاتح الهند

بطليموس الثالث « يورجيتيس »

تستطيع أن تراه رأى العين ، وتستطيع أن تملأ عينيك من هيبته ، وتشبع نفسك من فتنة الرجولة فى وجه ذلك الملك الشاب ، فها هو ذا تمثاله يقوم فى متحف الإسكندرية فى قاعته الفسيحة ، ينتظر أبناءه ليستفسرهم عن حالهم وليطمئن على ما فعلوا بملكه الشاسع العريض ! ولكنّ أبناءه المصريين لا يقبلون ولا يذكرون .. إنما يقبل على البطل المتأبد فى عزلته جماعة من العلماء المنصرفين إلى استقصاء أخبار العصر البطلمى المجيد ، فهؤلاء يعرفون لهذا العاهل المصرى الشاب فضلاً لا يكادون يعرفونه لغيره من عواهل ماضينا المجيد الطويل ، إنهم ليطوفون به ويعجبون بقسامته ويذكرون أيامه بالخير ، ويقرأون فى أساريره سر هذا الفتح العزيز الذى قام به ، ويطلقون خيالهم يتنقل فى أطراف هذا العالم الشاسع الـذى دان لهذا الفتى المصرى من طرابلس إلى حدود الهند كوش !

هذه شهادة قوم لا يكذبون ، شهادة الصادقين من أحبار مصر ورهبانها ومؤرخيها ، بل شهادات مؤرخى اليونان خصوم مصر فى هذا العهد القديم ، ولم يكن هؤلاء لينصفوا مصر بكلمة إلا وهم يعرفون أنها الحق لا تُجدى المماراة فيه ، أثبتها هؤلاء جميعاً بالهيروغليفية واليونانية والديموتيقية على حجر كانوب ، وسجلوا فيها للبطل الشاب هذا الفتح المبارك ، وشكروه على أن ردَّ لمصر ما أخذ منها من زينة المعابد وطُرف الصوامع ، ورفعوه إلى مقام الفراعنة الأول ، وهاهى ذى آلهة مصر ترضى عنه فتفسح لـه فى جوانبها مكاناً ، وتلقبه بالفرعون المحسن (يورجيتيس) .

نادى الناس به ملكاً على مصر وهو يخطو بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وكان رجال القصر لا يحسدونه على هذه النعمة الوافرة ، فقد كان العرش محاطاً بالمصاعب التى لايتغلب عليها إلا الجَلِد الأيّد ، فهذا دم أخته يجرى فى بلاط أنطاكية إذ اغتالتها لاوديكـى

زوج الملك على يد بعض رجالها ، وهـذا سلطان مصر يضطرب فى قبرص (طرابلس) ولا يدرى إلا الله هل ستعود إلى حكم مصر أو تنفصل عنها ويستقل بها الثائرون فيها .

كانت تلك أياماً حافلة بالاضطراب والمخاوف : دويلات لاعداد لها تضطرب وتتصادم فى رقعة الأرض المحصورة بين قلب فارس ومجرى الدانوب ، وفى كل دويلة عدد من المغامرين يصطرعون على العرش والسلطان اصطراعاً رهيباً ، ومن خلف كل مغامر طائفة من الجند المحترف تشد أزره وتقف وراءه ولا تزال تدفعه من حرب إلى حرب ومن مؤامرة إلى مؤامرة ، حتى تصبح حياته سلسلة لا تنتهى من الحروب والمؤامرات ، فلا تزال وأنت تقرأ أخبار العصر تتردد فى سمعك أخبار المجازر المروعة والمصارع المفزعة ، كأن قلوب أهل ذلك العصر قد قدت من صخر فلم تعد تحفل للدم الجارى أو للشر السارى ، بل أصبحت هذه الأخبار تسلية أهل العصر ونُقْلَ السمار المترفين يتفكهون بها وهم بين كاس وطاس ، ويتندرون بها إذا مَسَّت جنوبهم الأرائك فى ساعات الأنس والصفاء .

وكانت الأحوال كلها تنبىء بشر محيق حينما اعتلى هذا الفتى عرش البطالمة ، كان بطليموس الثانى (فيلادلفوس) قد بلغ بالإمبراطورية المصرية حَدًّا من السعة يكاد يستعصى معه إقرارُ السلام فى أرجائها وحفظها من الطامعين ، كان قد وطد أركان الإمبراطورية فى بحر إيجه ، ونشر سلطان مصر على الجزائر والشواطىء والدول المبعثرة فى هذا البحر المختلط الذى كاد أن يكون محيطاً لكثرة ما ازدحم على شواطئه وفى جزائره من الدول والناس ، وكان قد ثبت سلطانه فى الشام وفلسطين وشرق الأردن ، وقبض على ساحل فينيقيا بيد من حديد ، وكان قد مكّن للتجارة المصرية فى أنحاء العالم المعروف وقتذاك ، فمضت سفننا عبر البحر الأحمر إلى شرق إفريقية ، وعبرَ بحر الهند إلى خليج فارس وما بعده ، وأما البحر الأبيض فقد كان بحيرة مصرية تذرعه سفائننا آمنة إلى حيث تريد . وكانت زوجته « أرْسينُوِى » الثانية واسعة المطامع بعيدة النظر ، فما زالت تربط بين أفراد بيتها وبيوت الملوك فى عصرها حتى أصبح بيت البطالمة فى الإسكندرية مركز سياسة الدنيا ومطمح الأنفس ، وحتى غدت مصر عند وفاة بطليموس الثانى ميزان العالم وقلبه الخافق .

ولم يكن ذلك خيراً خالصاً ، فإن تشعب أمور الإمبراطورية المصرية واختلاط روابطها قد أثقل كواهل القائمين بشئونها وجعلهم لا يكادون يفرغون من المشاكل والمتاعب ، وكانت البلاد مجهدة من أثر الجهد الذى بذلته أيام البطلمين الأولين ، وكانت أحوج ماتكون إلى فترة من الراحة والهدوء . وما كانت البلاد لتجنى شيئاً غير المتاعب من مصاهرات قلقة يراد من ورائها بسط السلطان وتأثيل الملك ..

ومن أمثلة ذلك أن أرْسِينوُى كانت قد طمحت إلى السلطان على أنطاكية ، فاقترحت على زوجها فيلادلفوس أن ينظر فى زواج ملكها من إحدى أميرات البيت البطلمى . وكانت أرْسِينوُى تعرف أن أنطيوخوس متزوج ، وأن امرأته أميرة مخوفة الجانب لا تسكت عن عدوان يذهب بمقامها وبحق ابنها فى العرش ، ولكنها لم تحفل . ومضى فيلادلفوس ـ بما عرف عنه من الوداعة والموافقة لزوجته العزيزة عليه ـ يمهد الطريق لذلك ، واستطاع بعد مفاوضات طويلة أن يقنع أنطيوخوس بالتخلى عن زوجته لاوديكى والزواج بالأميرة المصرية برنيكى ابنة فيلادلفوس من زوجته الأولى ، وعرض عليه نظير ذلك صداقاً فاحشاً هو دخل فلسطين كله . فلم يكد الملك الطامح يسمع بذلك حتى تنكر لزوجته وأبعدها وحرم أولادها من العرش ، وجعله مقصوراً على ولد الأميرة المصرية . ووصلت الأميرة فى صحبة وزير مالية أبيها أبولونيوس ، واستقرت فى جو مضطرب كل مافيه ينذر بالمخاوف .

وامتدت مطامع أرسينوى إلى الناحية الأخرى ـ ناحية برقة ـ فجعلت تمهد الطريق لزواج وريثة عرشها برنيكى من وريث عرش البطالمة يورجيتيس ؛ وتمت الخطبة فعلاً واطمأنت أرسينوى إلى أن ابنها سيرث برقة ضمن مايرث . وإنها لفى ذلك إذ روعها نبأ مفاجىء : ذلك أن إيامَا ـ زوج ملك برقة ـ استدعت أميراً مقدونياً بارع الحسن يسمى ديمتريوس وزوجته من ابنتها لتحبط مساعى غريمتها أرسينوى ، ولكن ظنونها كذبتها ، لأن الأمير الجميل لم يكد يستقر فى برقة حتى شغفها هى حباً ، واتصلت العلائق بينه وبينها على نحو أثار الأميرة الصغيرة ، ومازالت الغيرة تأكل قلبها حتى دبَّرت لأمها وصاحبها مقتلة هزت أفئدة العصر وأصبحت حديث الناس : أغلقت عليهما الحمام وحرقتهما بالماء الغالى حرقاً ، ثم مدت يدها إلى أرسينوى تستعيد خطيبها القديم يورجيتيس ، وتقرر هذا وانعقدت

الأواصر بين أميرة يجرى دم أمها على قدميها وأمير طيب لا يدرى إلى أين يُسار به .

وهكذا تعقدت الأحوال وتواترت المشاكل على نحو جعل سياسة الأمور حملاً لا يكاد ينهض به إلا الفحل الشديد ، ومضت أرسينوى وزوجها إلى بارئهما مخلفين ذنب الضب هذا ليورجيتيس ، يحله كما يشاء .

وكان الناس يتوقعون أن يتخلى يورجيتيس عن ذلك كله ، لأنهم عرفوه شاباً هادىء الطبع سهل الخلق ، وكانوا يرون أنه منصرف عن تعقيد الأمور على هذا النحو النابغ الذى كلفت به أمه أرسينوى ، وأين له الوقت ليصفى حسابه مع أنطاكية وأصحابها ، ومع مقدونية ورجالها ، ومع دويلات آسية الصغرى وجزائر الأرخبيل ؟ إن الأمر ليحتاج إلى هيئة من الرسل والسفراء والمتآمرين يجعلون همهم السهر والتدبير ، وإن الأمر ليحتاج كذلك إلى مال وافر تملأ به الأكف هنا وتقفل به الأعين هناك ، وبغير هذا لن يستقيم الأمر أبداً ، ويظل التعقيد يفضى إلى تعقيد ، والاضطراب يؤدى إلى اضطراب .

ولكن يورجيتيس كان يطوى فى نفسه نفساً أخرى لم يطلع عليها ممن حوله أحداً . كان يعرف أن العقدة إذا استعصى حلها وتداخلت خيوطها لم يبق لها من حل إلا قطعها جملة ، وأن عقد السياسة لا يحلها إلا سيف بتار فى حده الفصل بين الجد والهزل . وكان ـ كالإسكندر ـ امرأ سيف لا هيابة يؤثر التدبير الخفى الذليل على ضربة تهز النفس وتعصف الجبان وتبدد المخاوف ، وكان ـ كتحوتمس الثالث ـ مصرياً عزيزاً ، وكانت قد تواترت على سمعه أنباء نقلها رهبان مصر وقساوستها عن سرقة تحف المعابد المصرية ونقلها إلى آسيا : سرقها غزاة الفرس وحملوها معهم إلى بلاطهم فى بلاد الرافدين ، فما سمع بطليموس ذلك حتى استقر رأيه على غزوة فريدة تمضى بجند مصر فى آثار الإسكندر يكسر بها حدة الطاغى ، ويعلم الناس بها أن فرعون مازال فرعوناً ، وأن جند مصر مازالوا على الأهبة إذا اضطرب الأمر وادلهمت المشكلات ، ولم يطل أوان التمهيد والاستعداد ، فما هو إلا قليل حتى استقام جيش مصر واستعد ليعيد على سمع الدنيا سيرة تحوتمس ورمسيس .

* * *

فصل يورجيتيس عن مصر ، ودخل فلسطين ، وتقدم فى بلاد الشام حتى اقترب من

أنطاكية ، فاكتسحها اكتساحاً ، وبهذا انتقم لأخته وأدّب الأغرار من أنصار أنطيوخوس وردهم إلى الصواب بعد أن قضوا العمر يشدون حبال المؤامرات ويرخونها ، يقامرون بالمال مرة وبالعرش أخرى ، ويحيلون الحياة بهذا العبث إلى فوضى لا مخرج منها ، ضرب يورجيتيس ضربته ليعلم الناس أى ملك ملكُ مصر ! ثم بارح الشام وأفضى إلى العراق فأقر به سلطان مصر . وأسرع إليه ملوكه وأمراؤه يبسطون له الطاعة ويجددون له العهد الذى كانوا أعطوه لتحوتمس الثالث ملك مصر ، حين وصل « نينوى » على ضفاف دجلة وضرب معسكره خارجها . وهناك تلقى يورجيتيس طاعة فارس وأهلها ، ولم يقنع بالوقوف عند حدود العراق ، بل خطا إلى فارس بلاد الأكاسرة وعرين الأسود ، غير راهب ما تناقله الناس عن قوة الفرس وشدة ملوكهم ، وقاد جنود مصر ومضى يذرع هضبة إيران لا يخشى غضبة أهريمان ولا بطشة مازدا ، حتى إذا فرغ من فارس أوغل فى قفار باكتريا (بلوخستان) ثم أشرف على السند واكتسحه ، وأدرك جبال الهندوكوش .. وفى ظلها جلس يستريح ! ..

هنالك أصبح جنود مصر سادة فى بلاد السند ، وجعلوا يرسلون الطَّرف فى هذه البلاد التى بلغ الإسكندر مبلغ الآلهة بفتحها ، وجعلوا يفكرون فى هذا العالم الغفير الذى دان لسلطان مصر ، ويتصورون هذه البوادى الشاسعات التى عبروها مع قائدهم العَظيم ، وأخذ يورجيتيس يفكر فى تنظيم هذا الملك المترامى ، وجمع حوله القادة المصريين يسائلهم رأيهم ويطلب معونتهم ، إذ كان يعرف فيهم رأياً طيباً ونظراً صائباً .

وترامى إلى سمعه أن أهل برقة (طرابلس) بدأوا ينشقون على ملك مصر ، وأن بعضهم طمع فى الاستقلال . وبرقة على حدود مصر • من وثب بها هدد الإسكندرية وأرض النيل ، وكان يورجيتيس يعلم أن أهل برقة لا يشقون عصا الطاعة على مصر بنازع من نفوسهم وإنما بدافع من عدو فى مقدونيا أو غير مقدونيا ، وكان يعلم أن هؤلاء الحاقدين لن يهدأ لهم جنب حتى يشفوا غلاً تأصل فى نفوسهم من مصر ومجدها ، وخشى إن هو أقام ينظم هذا الملك البعيد أن يفجأه العدو القريب ، وأحس أن هذه الغزوة قد كسرت شوكة الباغى وأعادت اسم مصر إلى مكانه من العزة والرفعة ، وألا ضير عليه أن يعود أدراجه كما عاد الإسكندر سيد الأبطال بعد أن أوغل بجنده فى هذه القفار . وأسرع رجال الهند يخطبون وده

ويؤكدون له أنهم مقيمون منذ الساعة على الولاء لبلد الفراعنة ، وعاهدوه على أن يرسلوا إلى بلاطه السفراء يكونون بجانبه ضماناً للطاعة وعنواناً على الولاء .

وقرت عينه بما رأت طوال هذه الغزوة من عزة اسم مصر وبطليموسها ، وأشار عليه قواده ونصحاؤه بالعودة ، فقد بلغ وبلغوا من العزة ما أراد وما أرادوا ، فأذن لجنده فى الاستعداد للرحيل . ومضى الجيش المنتصر بعد حين نحو أرض الوطن العزيز يحدوه الظفر والتوفيق ، وكر بجمعه يقطع الطريق إلى مصر ، وكلما نزلوا بلداً أمر بما كان قد سرق من كنوز مصر فى غزوات آشور وفارس أن يُرَد إليها ، ومضى بطليموس فى طريقه حتى دخل مصر فاستقبله أهلها وكهنتها أحفل استقبال .

ولم يكد مقام الملك يستقر حتى نادى جنده وقواده وأمرهم بالتأهب للسير معه إلى برقة وطرابلس ، فأخمد ثورتها وعاد عزيزاً منصوراً .

هنالك بلغ إعجاب المصريين بهذا الملك مبلغاً عظيماً ، وتردد حمده على ألسنتهم ، واجتمع الكهنة والأحبار وقر رأيهم على أن يكتبوا للملك وثيقة يسجلون له فيها فتوحه أسوة بالفراعنة الأولين .

فلما عقد كهنة مصر وأحبارها مجمعهم الدينى فى مارس من سنة ٢٣٧ قبل الميلاد عقب عودة يورجيتيس من هذه الغزوة البارعة ، سجلوا شكرهم له فى وثيقة باقية على الدهر تعرف بوثيقة كانوب ، قالوا فيها :

« إن الملك بطليموس بن بطليموس الثانى فيلادلفوس ، وأرسينوى (الإلهين الأخوين) وبرنيكى أخته وزوجته (الإلهين الخيرين) يجزلون دائماً للمعابد الوطنية نعماً كثيرة عظيمة ، ويزيدون مظاهر الإجلال للآلهة ، ولا يدخرون وسعاً فى العناية بآبيس ومنفيس وغيرهما من الحيوانات المقدسة المشهورة مهما كلفهم ذلك من النفقات ، وتعيين الكهنة اللائقين . وإن الملك ـ بعد قيامه بحملة فى الخارج ـ أعاد إلى مصر التماثيل المقدسة التى كان الفرس قد أخذوها منها .. » ثم تمضى الوثيقة فى سرد الأعمال الطيبة التى قام بها الملك نحو رعاياه ، من أنه نشر السلام فى البلاد ودافع عنها ضد أعدائها ، وأقام فيها حكومة رشيدة . وعندما قل منسوب الفيضان عن مستواه العادى ولم يسد الماء حاجات البلاد ، نزل الملك والملكة

عن جانب غير قليل من دخلها لإنقاذ حياة الكهنة والأهالى ، وأحضر القمح من سوريا وفينيقيا وقبرص وغيرها من البلاد ، وإزاء كل هذه الخدمات قرر الكهنة أن تزاد مظاهر الإجلال التى تقدم للملك والملكة وأبويهما وجديهما ، وأن يحمل الكهنة فى كل المعابد لقب « كهنة الإلهين الخيرين » ، إلى جانب ألقابهم الأخرى [1] .

واستمر يورجيتيس يحكم مصر ستاً وعشرين سنة لم تخمد له خلالها فى الفتح همة ، ولم يقعد به عن الغزو سبب ، وكان أسطوله لا يكف عن التجوال بشواطىء البحر الأبيض عازياً فاتحاً ؛ وكانت مصر تملك أيامها قبرص والشام وأجزاء من آسيا الصغرى ونواحى كثيرة فى بلاد اليونان ، عدا طرابلس وإثيوبيا ، وكانت مصر مدار سياسة العالم وصاحبة الكلمة المسموعة فيه ، إذ كانت أقوى بلاد الله جنداً وأعزها نفراً وأرقاها شعباً وأوسعها علماً. كانت الإسكندرية مركزاً من مراكز العلم التى يفد إليها الطلاب والأساتذة من كل حدب وصوب ، ولعل القارىء يعلم أن إراتستنيز العالم الرياضى الذى قاس حجم الأرض كان ضمن المستقبلين حين عاد يورجيتيس من حملته على آسيا ، ولعله يعلم كذلك أن مصر كان لها سفراء فى روما الناشئة وقرطاجنة الغنية القوية وبلاد العرب والهند نفسها، فقد روى المؤرخون أن بطليموس الثانى أرسل ديونيزيوس ليسفر له فى بلاط الهند ، وأن هذا السفير صنف كتاباً عن هذه البلاد .

وكانت فى الإسكندرية منارة يستضىء بنورها الغادى والرائح فى البحر الأبيض المتوسط. ولم يكن هذا بالأمر الذى يستكثر على دولة البطالمة ، إذ لم يكن أحد يشك فى أن مصر أرفع بلاد الله ذكراً ، وأعلاها شأناً . وأن أرضها مهبط الحكمة وشاطئها شاطىء النور والعرفان.

---

(١) عن النص الوارد فى كتاب « تاريخ مصر فى عصر البطالمة » للدكتور إبراهيم نصحى ، جـ ١ ص ١٩٦ .

يوم من أيام مصر الخالدة

واقعة رفح

وكم لمصر من أيام بيض ! وكم لها من معارك حاسمة ! وكم للمصرى من فخر من ميادين الحروب ، وكم كان له من نصر فى فترات اشتدت فيها الخطوب وتواترت فيها الأهوال ! وهل مصر إلا بين حجرى الرحى ؟ ما عبس القدر لأهل الأرض إلا امتُحن أهل مصر امتحاناً عظيماً ، وما اشتدت الخطوب يوماً إلا اجتمعت على مصر منها شراذم وجموع ! وهل خُلق بطل أو بعث نبى إلا مرَّ بنا وحيانا ، أو أرسل إلينا من لدنه من يدعونا إليه ويحاول كسبنا إلى صفه ؟ وهل قامت حرب إلا رمينا بسهمنا فيها ؟ وهل عصفت ريح أو ثارت سموم إلا طاف بمصر منها طائف وعصف بأرضها من شرها عاصف ؟ .

نعم .. ولم نخلف للحياة فى يوم ظنًّا ، ولم نخش أحداثها ، ولم نخرج من ميدانها ونتفرق بدداً كما خرجت قبلنا أمم ، وكما تفرقت بعدنا شعوب لايعلم إلا الله مثواها . وربما كان هذا سبب كل بلوانا ، فقد وُلدنا فى فجر الحياة واستيقظنا والأمم بعد فى ضمير الغيب ، ودرجنا نتحسس طريقنا إلى الحياة ونقود الأمم من خلفنا ، وتخير لنا القدر هذا الركن الخطير بين أرجاء الدنيا ، فلم يكد ساعدنا يشتد ، ولم نكد نهيىء لأنفسنا وطنا زاهراً منظماً حتى تطلعت العيون إلينا وثارت فى النفوس عوامل الحسد ، وناشتها دواعى الطمع ، فكان علينا أن نذود العدا ، ونرد الحاسدين ، ونؤدب الطامعين .

وانقضت علينا فى ذلك عشرات من القرون : نشأ أهل الشرق القديم عيالاً علينا يحاولون اللحاق بنا ، فإذا أعيتهم الملاحقة لجأوا إلى العداوة ، فما زلنا ننافحهم فى جبال الشام تارة وفى سهول بلادنا تارة أخرى حتى أطاعوا وسكنوا ومضوا فى ركبنا . ثم أقبل اليونان ، واشتدت سواعدهم ، فما راعهم إلا ذكر مصر على كل لسان ، فملكتهم الغيرة ـ

واليونانى القديم غيور ـ واحتدم الصراع بيننا وبينهم ، صراع فى الميادين وصراع فى عالم الفكر والآداب ، وما من مفكر إغريقى إلا كان له الغمز المستور أو الهجوم الصريح بغية الكيد لبلدنا .

وكان من سوء الطالع أن كتاباتهم انتهت إلى الأجيال التالية من بنى الدنيا ، فعبرت مثالبهم لمصر الأجيال ، وحسبها الناس بعد ذلك حقائق ، وما هى إلا بدوات المنافس الكاشح . وانضافت إلى ذلك كتابات بنى إسرائيل فى مصر ، وكلها ذم وهجوم . ولما انقضت قرون ، واختفت لغتنا القديمة ، وغابت معالم مجدنا تحت ركام السنين ، لم يبق لدى الناس غير ذلك الوصف المشوه يتناقلونه عنا ، حتى خفى على الناس فضلنا وغابت عن الذكر معالم مجدنا .

وجاءت أعصر الإسلام فنسيت مصر نفسها ، وانصرفت إلى الدين الجديد وما يتصل به من ثقافة ، تتفهمها وتنشىء لنفسها منها كياناً جديداً ، فضاع مابقى من معالم شخصيتها القديمة ، وحسبها العرب ومؤرخوهم أمة عاطلة عن كل مجد تالد ، وتعمد هؤلاء المؤرخون إهمالها وانصراف عن ذكر محاسنها وأفضالها ، فغدوتَ تقرأ الواحد منهم لا تكاد تجد فى صفحاته اعترافاً بفضل أو تقديراً لجهد ، بل لو أن أحدهم اكتشف لمصرى فضلاً لأغمض عنه عينه واستطرد إلى كلام آخر ، بل حرص بعضهم على أن يذكر المثالب ، حتى غدوت إذا سألت قارىء العربية عن مصر لا تكاد تجد على لسانه إلا أبياتاً للمتنبى وغمزات لابن خلدون وخرافات للمسعودى ومبالغات لعبد اللطيف البغدادى .

ولم يتبين للناس فضلنا إلا منذ حين ، حينما انجاب الركام عن العز الدفين وتحدثت النصوص عن المجد المؤثل ، ومضينا نناقش الإغريق ، وندقق فى كتابات بن إسرائيل ، وننقب فى كتابات العرب ، حتى تكشفت لنا آلاء من الفضل تعفينا على الأقل من أذى المتنبى وتفلسف ابن خلدون .

وقد يسلم لك البعض بأن لنا فى الحضارة أثراً ، أما فى الحروب فقلَّ بين الناس من يعرف أن مصر كانت فى فترات طويلة من تاريخها المديد أمةَ حرب ونصر وكفاح ، وأن لنا فى الأيام الغرر الخوالد ، ولنا فى أطوائها السبقات الزهر الأوابد ؛ وهل ينسى الزمان «مجدّو»

و « قادش » و « رفح » و « حطين » ؟ . وهل تعفى الأيام على المنصورة وعين جالوت وحمص وقونية ونصيبين ؟ . فهذا حسبنا فى العصور القديمة والمتوسطة والحديثة ، ولا حاجة لنا إلى فضل من فخر ننقب عنه فى بطون الكتب ، ولا تعوزنا البينة على بقية من مجد مستتر فى أطواء الروايات .

ومَن من الناس يكابر فى عظمة انتصار حطين ، حيث رددنا فيه على العالم الإسلامى اعتباره واستعدنا له بيت المقدس وكسرنا حدة الصليبيين بعد أن كادوا يأتون على الشرق ومافيه ؟ وهل هناك من يتردد فى تقدير مواقع حمص وعين جالوت : أنقذنا فيهما الدنيا من المغول بعد أن كادوا يغرقونها فى طوفان من الخراب والدمار ؟ وهل من يكابر فى أننا نهضنا أول من نهض من أبناء هذا الشرق الإسلامى نريد تحريره من ربقة الأتراك القدماء ، ونادينا أول من نادى بإنشاء دولة واحدة للعروبة وأهلها ، وخضنا المعارك فى سبيل ذلك ؟ . فهل يشك بعد ذلك أحد من الناس فى أننا أبناء حروب ورجال كفاح ؟ ما دعا الداعى إلا لبينا ، وما أتيحت لنا الفرصة إلا انتضينا السلاح وأقدمنا .

وعسى من يقول : لم تقوموا بهذا كله وحدكم ، إنما قادكم فى كل مرة قادة أجانب ، ولولاهم ما كسبتم معركة ولا خضتم ميداناً ، وهؤلاء قادة على مصر وأهلها ! .. والجواب على ذلك يسير جداً : إن القومية أمر حديث فى تاريخ الإنسانية ، أمر جد منذ قرابة القرن، وكان الناس قبل ذلك لا يفرقون بين مصرى وغير مصرى . فلم يأنف الإنجليز مثلاً أن يحكمهم غزاة من فرنسا يتكلمون الفرنسية ويعيشون فرنسيين سنوات طوالاً ، ولم يبالوا أن يتربع على عرشهم ملوك من أصل هولندى ، ولم يتحرج الفرنسيون من قيادة نابليون لهم وهو إيطالى الأصل ، ولم يتنصل الألمان من بيتهوفن وهو هولندى الأصل ، أو من فون مولتكه وهو دانيمركى ، وهكذا .. إنما كانت العبرة بالبلد الذى نشأ فيه البطل وباسمه كسب النصر أو أدرك المجد ، ولو أن صلاح الدين أقام فى غير مصر لما أصبح صلاح الدين ولما تهيأ للتاريخ نصر حطين .

ثم أعود فأقول إن هذه الانتصارات الظاهرة ليست هى كل مجد تاريخنا ، فما خفى كان أعظم ! وما يكاد الإنسان يمتحن الحوادث ويستجلى المستور حتى تتكشف له آيات من

قدرة هذا الشعب وحسن استعداده للنهوض بالمجد وما يتطلبه المجد من تضحيات ومطالب .

ولكن المكابرين يكابرون ! فدونهم حديث نصر رفح ، فهو يكفينا مؤونة البرهان ويغنينا عن طول التبيان ، ولسنا مزيدين عليه حرفاً ، وإنما سننقل لهم أحاديث الرواة والمؤرخين ، وهى على بساطتها كفيلة بأن تكشف عن كثير [1] .

* * *

انقضت أيام البطالمة الثلاثة الأولى ، ومضت انتصاراتهم مع أمس الدابر ، وأقبلت على مصر أيام من الخمول والإنحدار يقترن ذكرها بحكم بطليموس الرابع المعروف بفيلوباتر أى محب أبيه ، وكان فتى متبطلاً رقيقاً مسرفاً فى الترف ، لم تهبه المقادير من سمات الملك ما يستطيع به أن ينهض بأعباء دولة فى سعة مصر البطلمية ، ولم يهبه الله من الملكات ما يعينه على النهوض بما كانت تفرضه الظروف على عواتق الجالس على عرشها من مطالب ، وكان قد ترك قياد الأمور إلى نفر من شر من يبتلى بهم شاب فى مطالع رجولته ، على رأسهم ثعلب مستهتر يسمى أجاثوكليس وأخته العابثة أجاثوكليا وأمهما أوينانتى ، ولم تكن خيراً من بنتها فلم تلبث آمال المصريين والإغريق أن خابت فيه ، وكانوا يرجون منه الكثير فى حياة أبيه ، فقد أخذ العلم عن الرياضى الأشهر إراتستنيز ، وتأدب على يد الفيلسوف الرواقى سفايروس ، وكان حرياً أن يقود الدولة بعقل الرياضى وقلب الفيلسوف ، ولكنه مضى ينفق الوقت فى إنشاء خمريات وقصص عابث ، فلم يعد للناس بعد ذلك فيه رجاء ، ولم يكلف نفسه عناء حرب ولم يحملها أعباء سياسة ، وإنما استنام لبطانة السوء هذه ، وصار القصر كما يقول الأستاذ بيفان : « مباءة للرذيلة ومجمعاً للداعرين والمترفين والمفسدين » ، وأسلم الملك قياده لهؤلاء ، حتى نفر منه المخلصون وباعدوا بينهم وبينه ، وأنكره أساتذته ومؤدبوه : فهذا فيلسوف العصر وعالم المصر إراتستنين معلمه الذى اهتدى إلى كروية الأرض وقاس حجمها قبل الميلاد بأكثر من مائتى سنة، هذا هو يتباعدعن الملك اللاهى

---

(١) كان لابد من هذا التقديم المطول بعض الشىء حتى تتضح أهمية هذه المعركة وأمثالها فى تاريخ مصر ، وقد جرت عادة المؤرخين بأن يمروا عليها مراً سريعاً غير منبهين إلى أهميتها فى تاريخنا القومى .

لا يريد أن يبتذل نفسه معه ، وكان الملك لا يذكره إلا ركبه بالسخرية وأباح مقامه للسفلة والأوغاد يسخرون منه كما يشاءون.

وهذا حاكم الشام الأمين نيكولاوس يرقب أنطيوخوس الثالث ملك مقدونيا ويتخوف من أطماعه على أملاك مصر فى الشام ، ويستنجد بفيلوباتر وبوزيره سوسيبيوس فلا ينجده منهما أحد ، ويرى بعينيه خيانة زميله ثيودوتوس وتسليمه صور وعكا وأربعين سفينة حربية لعدو مصر الطامع فى أرضها وخيرها ، ويتوقع لنفسه مثل هذا المصير ، ويرجو أن يتداركه أصحاب الأمر فى الإسكندرية بالعون ، ولكن أين من يسمع وأين من يجيب ؟ إن الملك ووزيره فى شغل بأشعار ينظمانها فى أودنيس وأنخاب يشربانها فى معابد ديونيزوس ..

إنه ليشقى بهذا البلاء شقاء عظيما ، ويبذل قصاراه لإصلاحه بما عنده من الجند القليلين فلا يوفق إلى شىء ، ويفطن أنطيوخوس وقواده إلى ذلك فيسرعون الخطى ويتقدمون فى أراضى مصر فى الشام حثيثاً ، وتنحدر جيوشهم فتطرق أبواب فلسطين وهى حد مصر فى ذلك الزمان . ويستنجد القائد ويلح فى طلب النجدة ، فلا يصله شىء . ويكتب إليه سوسيبيوس أن يشيع أن جيش مصر واقف على الأهبة عند بلوزيون ، وأنه جيش عظيم مستعد للقاء كل عدو ، وتنفع الشائعة فى إيقاف العدو فترة من الزمان ، أخذ بعدها فى التقدم من جديد ، فأرسل نيكولاوس يستنجد مرة أخرى ، ويعلن أنه لن يستطيع بعد الآن شيئاً ، وأن الطوفان يوشك أن يعم إذا لم ينهض بطليموس وأصحابه ..

هنا تصك الشكاة آذان النائمين فيستيقظون بعد طول النوم ، ويتبينون فداحة الخطر ، فيمضون يتدبرون فى الأمر بعد أن اشتد ، ولم تعد تفلح فى علاجه الأكاذيب . ويسرع فيلوباتر إلى منف ومنها إلى بلوزيون على حدود بلاده لكى يرقب الأمر بنفسه ، ويمضى سوسيبيوس وزيره يجمع له الجند بالمال من بلاد اليونان ومن مصر ، ويشغل العدو بمفاوضات غرضها إيقاف تقدمه ريثما يكتمل له جيش يستطيع به الثبات ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن من أعدهم من الجند لا يكادون يكفون لإيقاف الخطر الماثل ، وتملكه الحيرة ، ويخشى أن تحيق به الهزيمة . ويشتد الضغط على الحدود ، وتترامى الأنباء ، ويرجف المرجفون ، وينظر فيلوباتر إلى هذا القليل من الجند الذى يحاول أن يسد به ثغره ، وتصيبه الحيرة ، ويزداد الضغط عليه ، ويتفرق وزراؤه ، ويصيح الصائح : ليس من الموت بد !

ولو أنه أصغى إلى ما يتحدث به النابهون وذوو البصر من أهل مصر إذا خلا بعضهم إلى بعض ، لزالت حيرته ولفُرِّج عنه همه ، فقد كان هؤلاء يتعجبون من أمر بطليموس ووزرائه الذين يبعثون فى كراء الجند من أراضى الدنيا والجند عندهم كُثْرٌ ينتظرون الإشارة ليهبوا للذياد عن حياض بلادهم أسداً كاسرة . لقد أهمل هؤلاء البطالمة أمرهم من يوم صارت إليهم هذه البلاد ، حاسبين أن الحرب للإغريق ومن جرى مجراهم ..

كانت دعايات اليونان قد ملأت آذانهم فاستقر فى أذهانهم أن المصرى قد مضى يومه ، وأنه دخل منذ زمان فى عداد الرعية التى لا يؤذن لها فى حمل السلاح ، فلما اشتدت الأزمة وازداد الخطر تهامس الكهنة فى أروقة المعابد وجعلوا يتساءلون عن السبب فى هذا الإهمال الذى يصر عليه البطالمة ، وتسامع سوسيبيوس بذلك فأبرقت فى خاطره بارقة أمل ، وأسرع إلى فيلوباتر يحمل إليه النبأ فتهلل له ، وأمر بالإسراع فى تنفيذه .

وأقبل جند مصر ، وأخذوا مكانهم فى المعسكرات ، وبدأ التدريب ، فلم تمض أشهر حتى استقامت منهم فرقة تبلغ العشرين ألفاً ، كانوا هم قلب الجيش المدافع وصخرته التى تتحطم عندها مطامع العدو ..

وفى الثانى والعشرين من يونيو سنة ٢١٧ قبل الميلاد ، التقى جيشان فى ميدان فسيح جنوبى رفح . وقد كان قواد بطليموس يودون لو انتظروا العدو فى أرض مصر ، ولكنهم لم يكادوا يرون أجناد الوادى فى القلب يتحرقون شوقاً للقاء العدو ، حتى تشجعوا واشتد عزمهم وعبروا سينا ، وذهبوا يلقون أنطيوخوس جنوبى فلسطين . ووقف عشرون ألفاً من أبناء هذا الوادى أمام عشرين ألفاً من خيرة المقدونيين واليونان : من كل مأجور ضُرِّى فى ميادين القتال وازرقَّ نابه فى قراع الأسنة ، ومن حول القلبين فيلة وفرسان وحملة دروع ، وتولى الملكان قيادة الفرسان . وبدأت المعركة ، وانقض أبناء مصر على خصوم مصر انقضاضة يعرفها التاريخ فيهم ، وحمى الوطيس واشتد الطعن ، فإذ المقاتل اليونانى يولى طالباً النجاة ، وإذا جند مصر يضعون السيوف فى قفاه بين دهشة فيلوباتر وإعجاب الدنيا كلها ، وإذا بهؤلاء الفلاحين الذين أقبلوا من بيوتهم منذ قليل يهزمون سادة الميدان هؤلاء ، وكان لا ينازعهم فيه خلال هذه القرون كلها منازع .

من ذلك اليوم فتح المصريون أعينهم ، وأخذوا ينظرون إلى البطالمة ومن التف حولهم نظر العزيز المنتصر الذى كسب فى يوم واحد ما خسره فى عشرات السنين ، وشعر البطالمة واليونان أن هذا شعب له خطره ، وأن فيه من القوى ماهو جدير بأن يرفعه إلى المقام الأول بين الأمم . ولكن كيف ؟ كيف يمضى الجنود من غير قائد ؟ وكيف ينهض الشعب من غير رائد ؟ ..

هذا فيلوباتر لا يكاد يدرك النصر حتى يعود سيرته الأولى : خمر وعبث ، وهذا وزيره سوسيبيوس يتخوف نهضة هؤلاء المصريين ويتوقع قيامهم فى وجهه كلما أراد أن يعود إلى سيرته الأولى فيهم ، فهو يهملهم ويتوقاهم كأنهم عدوّ يُتَّقَى ..

وهذه دولة البطالمة كلها فى انحدار ، ولن يلبث البيت البطلمى نفسه أن يتفرق ويمضى كل فريق منه فى طريق ، وتهبط البلاد هذا الهبوط الذى ينتهى بها إلى أيدى الرومان ..

ريجولوس يفى بوعده

استطارت الخصومة بين روما وقرطاجنة ، وازدادت الأمور بينهما حرجاً ، وذهبت كل منهما تتخذ الأهبة لاستئناف هذا الصراع الذى دام ثلاثة قرون ، وكان حديث الدنيا كلها زماناً ، ولم تخمد نيرانه إلا بالقضاء على قرطاجنة قضاء مبرماً . كانت الاثنتان جارتين بينهما ما بين الجارات المتنافسات من بغض وعداوة ، واجتمعتا فى غرب البحر الأبيض ، فلم يكن هناك شك فى أن إحداهما لابد أن تخلى المكان لتقوم الأخرى منفردة بالعز والسلطان ، وكانتا أول الأمر متعادلتين فى هذا الصراع المستعر ، لكل منهما من أساليب القوة وألوان الاستعداد ما ينبىء بأن الصراع بينهما ممدود إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وتلك سيرة البشر بعضهم مع بعض من مطلع التاريخ إلى يومنا هذا ، وستبقى كذلك إلى أن يميل ميزان الأرض ومن عليها : لا سلام بين ندَّين ، ولا عدالة بين قوى وضعيف . لا يزال الندادن يلتمسان أسباب الخصومة ، ويسرفان فى سوء الظن حتى تكون الحرب ، ثم لا يزال الصراع بينهما يتجدد على الأيام حتى يختفى واحد منهما وينفرد الآخر بالسيادة . لن تغير الحضارة من هذه الخصلة ، ولن يخفف العلم من غلواء البشر .

دبر الرومان للأمر تدبيراً ، وجرى فى بالهم أن يأخذوا قرطاجنة أخذًا ، وأن ينزلوا بها ليلاً فيغادروها خراباً يباباً وأهلها نيام . وأعدوا لهذا الأمر عدته ، وجمعوا أجنادهم ، وحملوهم فى السفن إلى صقلية حيث كانت معاقل القرطاجنيين الأمامية ، ونهضت سفن قرطاجنة لردهم فانهزمت انهزاماً قبيحاً عند رأس إيكويوموس : استولى الرومان على أربع وستين سفينة بملاحيها وغرق مائة ، وفرت الفلول الباقية إلى إفريقية ترجف بهول المصيبة .

وتوقع القرطاجنيون إقبال الرومان إلى إفريقية ، فسارعوا يتخذون الأهبة للقائهم ، ولكنهم انهزموا على مقربة من عاصمتهم قرطاجنة نفسها ، وكاد أمرهم يضيع لأن رعاياهم

وثبوا بهم ، وحسبوا الفرصة أقبلت ليحطوا عن أكتافهم سلطانهم . وتحرج أمر القرطاجنيين بين العدو المقبل من الخارج والعدو المضطرب الثائر فى الداخل ، واضطروا إلى طلب الصلح ، فتشدد الرومان فى شروطهم تشدداً نفَّر القرطاجنيين ، وبعثهم إلى الحرب من جديد ، وساعفتهم المقادير بقائد إسبرطى مجرب هو إكزانتيب ، تولى تدريب جندهم وإعدادهم حتى استطاع فى أمد قصير أن يضع فى الميدان جيشاً حسناً متلهفاً إلى الحرب ، ووقف به دون قرطاجنة ينتظر العدو المقبل .

وأقبل الرومان مستخفين بالليل يودون لو فجأوا أهل قرطاجنة وهم نيام ، ولكنهم لم يلبثوا أن ارتدوا على أعقابهم بهزيمة لم تخطر لهم ببال ، ذلك أن إكزانتيب كان على الأهبة ، وكان قد احترز فى موضعه وكمن الكمائن ، فما هو إلا أن أوغل الرومان حتى احتواهم القرطاجنيون وانهالوا عليهم انهيال من لايُبْقى ، فتفرقوا بين قتيل وأسير ، وكان فى الأسرى قائد الرومان نفسه : ريجولوس ..

كان ريجولوس قائد الرومان فى هذه الحملة الإفريقية شيخاً من هؤلاء الذين نلقاهم كثيراً إذا طالعنا تاريخ الرومان ، شيخاً من طراز شيشرون يؤمن إيماناً لاشك فيه بأن الرومان سادة الدنيا وخيرُ من فيها ، ويعتز بروما وتلالها السبعة اعتزازاً بالغاً ، تربى فى ميادين الحروب وارتقى فى المناصب حتى انتخبه الرومان قنصلاً ، أى قائداً للجيش .

وكان الرومان إذا أقاموا قنصلاً أقاموه لمدة عام يتخلى بعده عن منصبه لمن يخلفه ، فآلى ريجولوس على نفسه ليفرغن من أمر قرطاجنة فى عام واحد ، ومضى يبذل الجهد فى الحرب، فطرد القرطاجنيين من صقلية ، وهزمهم فى البحر ، ثم مضى يتتبعهم فى عقر دارهم ليستولى على عاصمتهم ويفرغ منهم ، فلما انتصر عليهم انتصاره الأول عرض عليهم من شروط السلم ما حسب أنه يكسر ظهورهم ، فرفضوا الشروط على ما رأينا ، ونفروا إلى الحرب من جديد . وسارع ريجولوس إليهم ، ولكن الحظ خانه وابتلاه بهذا الداهية الإسبرطى ، فخيب ظنونه وقضى على آماله وعاد به فى رباط الأسر مهزوماً .

واستكان الرجل للأسر ولبث ينتظر قضاء أعدائه فيه ، وكان القرطاجنيين كالرومان قساة : إذا وقع فى يدهم عدو أوفوا على الغاية فى عذابه ، فلبث ريجولوس ينتظر عذابه فى شهامة القائد الأنوف الذى لا يخاف الموت أو يرهب العذاب .

ولكن القرطاجنيين لم يستنيموا إلى الظفر ، ولم يصرفهم النصر عن أن يحترسوا من الرومان وأن يقيموا على الحذر منهم ، وكان فى الرومان دأبٌ على الجهد وإصرار على الكفاح ذهب فى الناس حينذاك مذهب الأمثال ، إذا أنشبوا أظفارهم فى عدو لم يفلتوه إلا هالكاً ، وربما تواترت عليهم الهزائم وتهاورتهم المصائب فلا يزدادون على البلاء إلا شدة وإصراراً ولا يزالون يجيشون الجيش بعد الجيش يرمون به العدو حتى تنفد قواه ويسلم لهم أمره . لهذا أخذ القرطاجنيون يقدرون أن الرومان لن يستكينوا لهذه المصيبة ، وأنهم دائبون على الجهد لايهدأ لهم جنب إلا إذا أخذوا بثأرهم وعرفوا ألا طاقة لهم بلقاء هؤلاء القوم ، وأحبوا أن يحتالوا للمقادير بحيلة يهربون بها من ملاحقتها إياهم .

وانتهى بهم الرأى إلى أن يستدعوا ذلك الشيخ ريجولوس من سجنه ، وعرضوا عليه الأمر وتباحثوا وإياه فيه ، حتى انتهوا معه إلى أن يُعقد الصلح بين الحيين ، وأن يكونا جارين بينهما تعاطف الجيران وصفاء الأصدقاء . ولم ير ريجولوس فى ذلك بأساً ، فأقر القرطاجنيين على ما ذهبوا إليه من رأى ، ثم عرضوا عليه أن يوقع معهم تحالفاً باسم الرومان ، وسألوه أن يمضى بعد ذلك إلى أهله فيجتمع بشيوخ الكابيتول ، ولا يزال بهم حتى يروا الأمر على وجهه الذى رآته ويقروه . ولكن الشيخ أبى ذلك ، وأفهم القرطاجنيين أنه لن يسمح لنفسه بأن يستعمل الحيلة والمنطق فى إقناع الرومان وإرغامهم على أمر قد لا تكون لهم فيه رغبة ، وأبى أن يتقيد بعهد قد يتاح له أداؤه وقد لا يتاح ، ثم طلب إلى القرطاجنيين أن يأذنوا له فى أن يمضى إلى بلده فيعرض الأمر على أهله ثم يعود فيلقى إلى القرطاجنيين ما انتهى إليه جهده ، فأخذوا عليه العهد أن يعود إذا فرغ من مهمته ، وألا يكون ذلك حيلة منه لكى ينجو من أسره .

وكان القرطاجنيون قد قدَّروا أن الرومان موافقون على الصلح على أى حال ، لا حبًّا منهم فى السلام أو استكانة للهزيمة ، وإنما حفاظاً على حياة هذا الشيخ المهيب ، إذ لو رفضوا السلام وقرروا الحرب لكان معنى ذلك هلاك ريجولوس : سيعود إلى قرطاجنة يعلن رفض الرومان واستمرار الحرب ، فيعود إلى مكانه من الأسر وينزل به العذاب الأليم . حسب القرطاجنيون أن الرومان لن يفعلوا هذا أبداً ، وأن قلوبهم لن تذهب فى التحجر

مذهب من يرسلون رجلاً من خيرة رجالهم إلى حتفه . كانت تلك حيلة بارعة من القرطاجنيين ، وكانت حرية أن تنطلى على الرومان .

وأخذ الرجل أهبته للرحيل ، وبارح قرطاجنة ، فلما كان بظاهرها رأى من عدة القرطاجنيين للحرب وأهبتهم لها ما أثار فى نفسه شكا وأوجس فى نفسه خيفة أن يكون القرطاجنيون يطلبون هذا الصلح ليستعدوا للحرب فى مداه ، فانثنى إلى قروى من أهل ريف قرطاجنة وسأله الخبر ، فأفضى إليه بأن القوم يدبرون هجوماً عاماً على إيطاليا ، وأنها أشهر لن تنقضى حتى يكون القرطاجنيون أصحاب الأمر فى روما وأهلها .

هنالك أصبحت شكوك الرجل يقينا ، فانطلق إلى قومه غضبان أسفاً ، فلما اجتمع بأصحابه فى الكابيتول ، مضى يشرح لهم الأمر ويفيض فى تفصيله ويحثهم على الاستعداد والأهبة حثاً شديداً . وعجب الرومان من أمره ، ولكنه مازال بهم حتى استمعوا إلى نصيحته وأسرعوا يتخذون الأهبة ، وبدأت قواهم تجتمع وجيوشهم تتأهب ، وعرضوا عليه أن يقود الجيش المهاجم فأبى وقال : « إنما أنا أسير ! » . وريع الرومان من قالته تلك ، وفهموا مايعنى بها ، ومضوا يستوضحونه الأمر ، فأعلن إليهم أنه فى الأسر مايزال ، لأنه وعد القرطاجنيين بأن يعود ، وأنه عائد لأنه أعطى « كلمة الشرف » وكلمة الشرف قيد لا يتحلل منه الرجل الشريف .

ريع الرومان حينما سمعوا حديث الشيخ ، وزاد روعهم حين رأوا الرجل يستعد للعودة إلى القرطاجنيين ليبلغهم نتيجة مسعاه ، ومضوا يبينون له أن القرطاجنيين لن يفلتوه من عذاب أليم لو نبأهم أنه أثار عليهم الرومان ، ولكنه أبى أن ينثنى ، وأصر على أن يعود ليفى بالعهد الذى أخذه على نفسه ، وكانت كلمته للذين أثقلوا عليه : « لقد حفظت على روما كرامتها ، فاسمحوا لى أن أحفظ على نفسى كرامتها » . هنالك لم يجد أصحابه وآله بداً من أن يدعوه ينصرف إلى حيث يبغى ، واجتمعوا لتوديعه الوداع الأخير ، ولم يكن هنالك شك فى أن الرجل كان فى طريقه إلى الموت ، ولكنه كان يبتسم ، كأنما الأمر الذى يسعى إليه يستدعى هذا الابتسام .

وكانت هذه التضحية ـ على هولها ـ صغيرة على همة هذا الرجل ، كان يؤكد لزوجه وابنيه

أن الأمر جدٌّ هين . إن هو إلا رجل أدى واجبه وبرَّ بوعده ! وكل رجل حقيق بأن يؤدى واجبه نحو وطنه ويبر بوعده ، أمْ حَسِب الناس أن الوعدَ لا يفى به صاحبه إلا إذا كان الوفاء هيناً سهلاً ؟ فليعلموا إذن أن الوعد يوفَى به حتى فى ظلال الموت !

مضى الرجل إلى قرطاجنة فاستقبله أهلها بالبشر والإيناس يحسبونه يحمل إليهم السلام ومضوا وإياه إلى مجلس حكامهم ليظهرهم على جلية الخبر ، فلما انتهى إليه نصح لهم مخلصاً أن يستعدوا للحرب ! فلما استوضحوه الأمر ، أفضى إليهم بما فعل كاملاً ، فنظر بعضهم إلى بعض عجباً من أمر هذا الرجل ، وحسبوه أول الأمر هازلاً ، فما يكون مثل هذا الكلام إلا هزلاً ، وما يبلغ رجل من العبث بنفسه مبلغ إسلامها إلى الجلاد راضياً مطمئناً . ولكنهم لم يلبثوا أن استبانوا أن الرجل لا يقول إلا صدقاً ، وأنه ألَّب قومه عليهم ثم أقبل إليهم موفياً بوعده لهم ! فعقدوا مجلساً للبحث فى شأنه ، وظلوا يتشاورون فى الأمر طول الليل ، وقد أعياهم اختيار عقوبة كافية لهذا الرجل الذى لا يخشى الموت .

فلما انتهوا من الرأى فى أمره أقبلوا عليه فى النزل الذى كان نازلاً فيه ، وكان حرًّا طليق القيد أثناء ذلك كله ، فوجدوه ملقى على الأرض وقد أغمد سيفه فى قلبه وإلى جنبه بطاقة فيها : « .. حتى لا تأخذونى ولا تأخذوا سيفى .. ألا هل وفيت ! » .

مثرادات ملك بنطس

١٢٠ ـ ٧٠ ق . م

يعجب به مؤرخو اليونان والرومان إعجاباً شديداً ، ويسرفون فى وصفه والتمدح به وتفصيل أعماله إسرافاً بالغاً ، ويفيضون فى الحديث عنه حتى لتلقاه كلما طالعْت بلوتارك ، وتصادفه كلما استمعت إلى تيتوس ليفيوس ، ولا تكاد تشبع من أنبائه عند مارسيللوس أبيانوس ، بل هم يذهبون في الإعجاب به مذهباً يدفعهم إلى احتسابه إغريقيًّا ، وهو فى أصله فارسى شرقى ، ويجعلونه بعد الإسكندر مثلاً للعبقرية اليونانية التى تفيض بطولة وجلالاً .

كان مثرادات فتى بارع الحسن ، أدرك من وفرة الرجولة وسحر الشباب ونعمة الفروسية ما حببه إلى الناس ورفعه فى نفوسهم إلى منازل الآلهة وأنصاف الآلهة . ارتقى العرش حين أشرف على الخامسة والعشرين ، فأقبلت شعوب آسيا الصغرى تسعى إليه طواعية وخوفاً ، واستقام له الملك العظيم فى بُنْطُس على البحر الأسود ، وساعفه القدر وأيده الطموح فمضى يوسع بلاده فى كل وجه ، وحارب الرومان فانتزع منهم آسيا الصغرى ، وأخضع ملكى كَبادُوكْيا وبيثينيا ، وأقر عاصمة ملكه فى بِرْجامُوس كبرى بلاد آسيا الصغرى وأكثرها حصانة، ثم بعث ابنه أرياراث فى جيش إلى تراقيا ومقدونية شمالى بلاد اليونان فأخضعهما ، وأرسل أرخيلاوس قائد أسطوله ليخضع بحر إيجه ، فجعل أثينا عاصمته ، ومضى يستعيد من الرومان ما فتحوه من بلاد اليونان جزءاً جزءاً .

وكان الناس فى بلاد اليونان وفى آسيا الصغرى قد أبغضوا الرومان ونفروا من استبدادهم وتاقت نفوسهم إلى من يخلصهم منهم ، فلم يكد يظهر مثرادات حتى أقبل إليه اليونان وأهل آسيا مؤيدين ، وعمر جيشه بالجند من كل صنف ، وحفل أسطوله بالسفن والملاحين

واستقام ملكاً على شرقى البحر الأبيض ، ومضى يتأهب لصد الرومان إذا هم قصدوه ، وكان يعرف أن الرومان لابد فاعلين ، لأنهم كانوا قوماً محاربين لا يفرغ لهم جشع ولا تطمئن جنوبهم إلا على وساد الثرى فى ميادين الحروب ، ولكنه لم يكن مستوثقاً من أمر اليونان ، لأن حالهم كان قد ضعف وهبطت همتهم وأصبحوا لا يتأخرون عن بسط يد الطاعة لمن يقبل على بلادهم ظافراً ، لهذا جعل مثرادات مركز أعماله فى آسيا الصغرى ، وتحصن فى هضابها ووهادها ، ولبث ينتظر الرومان .

وتواترت الأخبار إلى روما ، وترددت الخطب فى الكابيتول بضرورة القضاء على مثرادات ، ولم يكن مثرادات يهدد روما ولا شيئاً من مصالحها ، ولكن بَغْيَ الرومان كان يأبى أن يرتفع فى جو الكرامة إلى جانب رأسهم رأس ، ولو أقبل إليهم حليف صافى النفس يمد يد الصداقة لعدُّوا ذلك إساءة ، لأن أحداً من أهل الأرض لا ينبغى له أن ينهض لهم نداً ، وما يزالون يدبرون له الكيد ويتربصون به الدوائر ويلتمسون له الأخطاء حتى إذا جمعوا فى أيديهم ما يبرر لهم حربه ، نهضوا إليه كذئاب الفلاة لا يزالون يتناهشونه حتى يصرعوه ويسيروا على جسده وعلى رؤوسهم أكاليل الغار . .

ذلك أن وظائف القنصلية وما إليها كانت وقفاً على القادة المظفرين ، فكان كل طامع فى السلطان يترقب فرصة يقود فيها جيشاً يفتح به فتحاً ، فإذا عاد مظفراً توَّجه مجلس الشيوخ بأكاليل الغار ورشحه لمنصب القنصلية ولمناصب الحكومة فى الولايات . لهذا كان شبابهم يتوثب شوقاً إلى الحرب والقتال ، وكانت الفرصة للفتح إذا سنحت تبادر إليها القائدان والثلاثة ، كل يبذل وسعه حتى يندبه مجلس الشيوخ لها ، فإذا ظفر بالقيادة لم يرض بما دون النصر والظفر ، فربما حرق المدن بأهلها ، وربما أنزل المذابح بالآمنين ، وربما استسلم له العدو فأبى إلا أن يحاربه وينتصر عليه ! .

لهذا لم تكد تسنح فرصة حرب مثرادات حتى تبادر الظاهرون من القواد والطامعون فى السلطان يتنافسون فى الفوز بالانتداب للقيادة ، وكان أظهرهم ماريوس وسولاَّ ، وكانا قائدين طاغيتين فعلا بالدنيا وبأهلها وبروما نفسها الأفاعيل ، ومازال كل منهما يبذل جهده حتى فاز بها سولاَّ أعتى مَن رأى الرومان حتى الساعة من جبابرة الحروب : رجل

روى بلاد اليونان وآسيا الصغرى بدماء جنده ودماء أعدائه ، ولم يكفه هذا فعاد إلى بلاده يسومها خسفاً حتى قلب نظامها رأساً على عقب ، ونهض له خصمه القديم ماريوس يريد أن يصده عن الطغيان ويريد أن يبلغ منه ثأره على ما فاز عليه به من قيادة الحرب ضد مثرادات ، فلم يزالا يحتربان فى إيطاليا حتى كاد الفناء يعفى عليها ، وانتصر سولاً وجثم بكلكله على صدر الرومان زماناً حتى أزاحته عنه سيوف المغتالين .

* * *

سار سولاً لحرب مثرادات وهو لا يشك فى أنه قاض عليه فى بضعة أشهر ، وجعل يؤكد لأصحابه فى مجلس الشيوخ أنه عائد بعد أسابيع ليقف إلى جانبهم ويؤيدهم فى خصوماتهم الحزبية التى كانت فى ذلك الحين أشد ما تكون اتقاداً وسعيراً ، ونزل بلاد اليونان وأخذ قواده يلقون قواد مثرادات ، وأحست دويلات اليونان الخوف من القائد الرومانى ، فأخذت تنضم إليه ، فرأى مثرادات أن الخير فى أن يسحب جنوده من بلاد اليونان وأن يركز جهده كله فى آسيا الصغرى ، فلم تكد بضعة شهور تنقضى حتى كان ميدان الحرب قد انتقل إلى جبال الأناضول ووهادها .

وقد حاولت أثينا أن تقاوم سولاً وجنوده ، فكان جزاؤها أن ذبح من أهلها آلافاً وأجرى دماءهم أنهاراً ، وهدم عدداً من أقدم الهياكل وسواها بالتراب ، وأنزل بالناس من العسف والظلم مالم تسمع به الإنسانية قبل ذلك أبداً ، حتى لقد أخذ أهلَ اليونان جميعاً رعب شامل ، وتقدم نفر من الشيوخ الأجلة فألقوا أنفسهم عند أقدام المنتصر يرجونه العفو عمن بقى من الناس ، فجعل يتباطأ فى إجابة مطلبهم حتى يعطى جنوده فرصة أطول للقتل والتخريب ! ولم يكُفَّ يد جنده حتى أصبح البلد الخالد قاعاً صفصفاً .

وانتقلت الحرب إلى آسيا الصغرى ، وألقى مثرادات خير جنوده ، وساق عليهم سولاً خيرَ من عنده ، وبدأ صراع رهيب لم تشهد بلاد آسية الغربية إلى ذلك الحين شبيهاً له ، واستبسل البنطيون من جند مثرادات واستبسل الرومان ، وأصبحت الحرب صراع فناء يهلك فيه كل يوم آلاف .

وبلغ من حدة المعارك أن الجيشين كانا إذا التقيا استحال الناس من الجانبين وحوشاً

ضارية لا يكاد يصرفهم عن القتال إلا هبوط الليل ، وقد حدث أثناء المعارك عند خايرونيا وأورخومينوس أن احترب الجمعان أسابيع دون الوصول إلى نتيجة ، فلما أقبل الليل ذات مرة قرر سُولاً أن يقوم بعمل يضع للقتال حداً ، فطلب إلى جنده أن يقوموا بحفر خنادق على جانبى معسكرهم تؤمنهم من أن يؤخذوا من الجوانب إذا استعر القتال من غد ، فلما أقبل الصبح وهجم الأسيويون لم يكن الجند المكلفون بالحفر قد فرغوا ، فاكتسحهم المهاجمون وقتلوا منهم عدداً عظيماً ، فريع جند سولا أنفسهم ومضوا يتهاربون حتى كادت تحيق بهم الهزيمة ، فلم يكن من سُولاً إلا أن ترجل عن فرسه وألقى بنفسه فى معمعان المعركة وقال : « إنه لمجد لى أيها الرومان أن ألقى مصرعى هنا ! أما أنتم فإذا سألوكم أين تركتم قائدكم صريعاً فاذكروا اسم المكان ولا تنسوه ، إنه يسمى أورخومينوس ! » فلم يكد الجند يسمعون ذلك حتى كروا إلى الميدان وعادوا يقاتلون قتال المستميت ، حتى خلعوا ميمنة العدو عن مواضعها وقتلوا ديوجينيس ابن القائد أرخيلاوس ، واستبسل الجانبان حتى إن رماة مثرادات أعوزهم المكان ليرموا بسهامهم ، فحمل كل منهم أسهمه تحت ذراعه ومضى يضرب بها كأنها عصى أو حراب ، فلم ينته اليوم حتى هلكوا عن آخرهم ، وأصبح الميدان كله بركة دماء ، حتى ليحكى بلوتارك أن الناس كانوا إذا مروا بذلك الموضع بعد مائتى سنة رأوا بقايا جثث القتلى وآلات الحرب .

وأخذت قوات مثرادات تتهاوى ، وأخذ جنده يتفرقون عنه ، وكان المدد لا ينقطع عن سولاً وجنوده عن طريق البحر ، فى حين عاقت وهاد آسيا الصغرى وصول الأمداد لجنود مثرادات على هيئة منتظمة ، فأخذ جنده يتراجعون ، وأخذت المعركة الحاسمة على حدود بنطس نفسها تقترب .

* * *

فزعت دويلات آسيا الصغرى فزعاً شديداً ، وكان معظمها أتباعاً لمثرادات أو أحلافاً له وترامت إليها أخبار مذابح سولاً فى بلاد اليونان ، وأنباء استبسال جنده فى الحرب ، ورأوا أن أمرَ صاحبهم مثرادات إلى خذلان ، فبدأ الخوف يميل بهم نحو سولاً ، وأسرع نيكوميدس أكبر حلفاء مثرادات فمد يده للرومان محالفاً ، وأعقبه فى ذلك نفر كبير من

الأمراء والحكام ، حتى كاد إيوان مثرادات أن يكون قاعاً صفصفاً من الحلفاء والأعوان .

وتردد الخوف فى نفسه بعد هذا الصراع الطويل ، وأيقن أن اللحظة الحاسمة تقترب ، فأسرع يجمع الجند ويقوّم الجيش حتى استقام له جيش عظيم زوده بآخر ما بقى له من المال ، وأخذ هذا الجيش الأخير يخطو فى ثقة نحو سولاً . وكان هذا فى اطمئنان الواثق وأمان العزيز ، فلم يكلف نفسه عناء السير ، وبعث قائده فلاَ كُوس ليصفى الحساب مع مثرادات ، ولكنه روع حين حمل له نذير الشئوم أشلاء فلا كوس ، ولم تلبث فلول الجيش أن انقلبت إليه هاربة تستغيث من شر ما أصابها على يد أمير بنطس ، فملأ نفسه الغضب واضطرم غيظاً ، وأقسم لا يعودنَّ إلا بمثرادات نفسه يجره من ناصيته جرا ، ويربطه فى عجلته ثم يعود به إلى روما يعدو على قدميه خلف العجلة حتى يبرى طول السير قدميه ، واقترب الفريقان وأشرفت الطليعة على الطليعة ، وأدرك القائد أن اليوم يوم تتقرر فيه المصائر ! .

واشتبك القتال ودام أياماً ، وامتدت الأيام أسابيع : يصبح الصباح فيثار النقع ويتعالى صخب السيوف وصياح الأبطال ، ويقبل المساء فترد السيوف إلى الأغماد ويسود السكون ، حتى سئم أصحاب مثرادات وأحلافه هذه الحروب التى لا تنتهى ، وأدركهم شىء من السأم أو اليأس فمالوا إلى الصلح ، وحدثوا قائدهم فيه فأبى . واجتمعوا يتشاورون ، ثم انتهوا إلى أن يطلبوا من أميرهم قبول الصلح ، فإن أبى فهم فى حل من طاعته وهم أحرار فى إماراتهم يصرفونها كيف أرادوا . فلما رفض مثرادات ذلك انقلبوا ومدوا للرومان يداً، وتقبلهم سولاً شاكراً وأقرهم فى أمانه وأظلهم برعايته ، وما هى إلا شهور حتى أصبح مثرادات وحده لا يجد أخًا ولا نصيراً .

* * *

كانوا ثمانية عاهدوا أنفسهم على ألا تسقط بنطس حتى يسقطوا ، وألا يسير الرومان إليها إلا على أجسادهم : أولهم مثرادات العظيم ، وتليه زوجه الوفية ، وخمسة من الفرسان والأبطال ، وكلب جليل يعدل ألوفاً ! وكيف لا يكون جليلاً وقد كان آخر من بقى حياً يدافع عن بنطس ؟ وكيف لا يكون جليلاً ، وقد وقف يحرس رفات سيده سبعة أيام لايذوق

شيئاً ولا يميل إلى نوم ، يُعول إعوال الثكلى ويصبر صبرَ الشهيد لا يتحرك مخافة أن تقرب النسور جثمان سيده الحبيب ؟ .

أرسل مثرادات إلى سولاً ينبئه بأن بنطس لن تسلم بغير حرب ، وأن دون أسوارها جيوشاً عدادها ثمانية كل منها بمائة ألف ، أى عدادها ثمانمائة ألف ! وضحك سولاً ما شاء له الضحك ، وسخر قواده ما شاءت لهم السخرية ، ثم همَّ سولاً فبعث ثمانية من صحبه فلم يعودوا ، ثم ثمانين فلم يعُودوا ، ثم مائة فلم يعودوا ! فكاد يصعق ، فهمَّ وتقدم بنفسه ، فإذا المدافعون عن البلد اثنان : مثرادات وكلبه ! وقد وقفا أمام الباب لا يكاد أحدٌ يقربهما حتى يمزقاه شر ممزق ، هذا بسيفه وذاك بأنيابه ، فأمر سولاً بجحافله فأقبلت ، فثبت الفتى لها ثبات الجبال ، قابلها سيفاً بسيف وسهماً بسهم ، ثم اشتد الأوار وثار النقع ولم يعثر لمثرادات على أثر ، واقتحم الرومان البلد وقضوا على من بقى فيه حيًّا .

كان سولاً يمر بعد أيام مع قواده فى معسكره ، فإذا صوت رهيب يترامى إلى أسماعهم فينصتون إليه مروعين ، كان صوت وحش يرسل الصيحة تلو الصيحة فتشق سكون الليل البهيم حتى لتروع الجيش بأسره . فلما أصبح الصباح أخذوا يقتربون من مصدر الصوت ، فإذا كلب ضخم فى أقصى العدوة يعوى من أعماق نفسه باكياً معولاً ، وإذا هو قائم على رفات يحرسها ولا يدع أحداً يقربها ، وإذا الراقد المسجى مثرادات تحوم حوله النسور والكلب من دونها يدفعها ! ولم يجسر أحد على الاقتراب ، فقد كان الكلب شديداً تتبدى الضراوة فى عينيه ، لا يقترب منه إنسان إلا همَّ به . هنالك جاشت نفس سولاً فبكى ، والرجل الشجاع يبكى الرجل الشجاع !

وأدركته الحسرة ، وناله غم شديد ، ولبث يرقب الكلب فى ألم بالغ ، حتى أدرك الحيوانَ المسكينَ التعب وبح صوته ، فرقد إلى جانب رفات سيده ، وسكنت حركته ومات ! .

شيشيرون ينقذ روما

كان « لوكيوس كاتيلينا » فتى رومانيا عابثاً ، استهل حياته ينعم فى أعطاف الغنى ، ويزهو فى مطارف العز الوارف والنعمة السابغة ، فأقبل ينفق أيامه على موائد القمار ومجالس المترفين ، فلم يكد يمضى زمان قصير حتى كثر الدائنون ببابه ، وأملق واشتد عليه الطلب ، فلما استبدت به الحاجة ، اجتمع بنفر من أصحابه الذين أصابهم ما أصابه ، ونظروا فى الأمر ، فلم يجدوا إلا سبيلاً واحداً يقيل عثرتهم ويرفع عنهم البلاء : فما عليهم إلا أن يجمعوا نفراً من العبيد وقومهم جيشاً يفتح روما ، ويستولى على ما عند أهلها وما فى خزائنها من الأموال .

وبدأ الناس يتحدثون بما يدبره هذا الفتى وأصحابه من شر ، وتردد الحديث همساً من الخوف أو جهراً مع الرياء للمؤتمرين ؛ وتسامع القوم أن كاتيلينا يُعِدُّ جيشاً لا يحصيه عد ولا يطيقه أحد ، وأقبل الرواة من إتْرُورْيَا ـ شمالى روما ـ يتحدثون بما يبيِّت للرومان من شر ، وما يدبِّر لشيوخهم من سوء المصير .

وتردد الخوف فى جوانب الكابِتُول ، واستبدت الخشية بالشيوخ ، فانعقدت منهم الألسن ، وحرص كل منهم على ألا يتحدث عن كاتيلينا بسوء ، بل طفق نفر منهم يتودد إليه ويتملقه ، ولا يتحدث عنه إلا بكل خير ، بل بلغ الأمر أن أسرع ضعاف القلوب منهم فعقدوا معه الخناصر وبايعوه على هذا الذى يريد .

وكانت الأحوال العامة فى الدولة الرومانية فى ذلك الحين تسمح لمثل هذا الفتى بأن يفكر هذا التفكير ، وأن يتوقع لنفسه ولأصحابه التوفيق من ورائه ، فقد كان جو السياسة الرومانية مضطرباً تُغشِّيه السحب وتنوشه طلائع الأعاصير . كان يوليوس قيصر قائداً

ناشئاً يقود جيوشه قيادة موفقة فى جبال الألب وفى غالة ، وكانت أخبار انتصاراته تروِّع مجلس الشيوخ ، لأن أعضاءه كانوا يعلمون علم اليقين أن قيصر سائر نحو الاستبداد بالأمر، وأنه حين يعود إلى روما وعلى رأسه هذه الأكليل كلها لن يقنع بمكانه فى مجلس الشيوخ أو بإحدى الوظائف الكبرى ، وكان أنصاره والملتفون حوله من أمثال رولوس وكاتيلينا ورابيوس لا يكفون عن الإلحاح على مجلس الشيوخ فى إطلاق يده وبسط سلطانه.

وكان مجلس الشيوخ محيَّراً لا يعرف كيف يحتمى من سلطان هـذا القائد الغلاب الطامح ، ثم إن مجلس الشيوخ كذلك لم يكن ليستغنى عن قيصر ، فلو أغمد هذا الرجل سيفه وكف عن العمل لتفرقت أملاك الرومان وثار الإيطاليون بأهل روما ، وصار الأمر إلى حرب أهلية ربما آذت البلاد أكثر مما آذتها حرب ماريوس وسولاً . وكانت حاجة المجلس شديدة إلى رجل قوى القلب جرىء النفس ، يستطيع أن يقاوم جشع الطامع دون أن يثير عداوته ويضع الدولة تحت رحمته ورحمة جنوده .

وكان هذا الرجل المأمول موجوداً ، ولكنه لم يكن طيِّعاً سهلاً ، بل كانت له آراؤه ومراميه فى عالم السياسة ، وكانت تلك الآراء تخيف الشيوخ كما كانت تخيفهم مطامع قيصر ، فقد كان هذا الرجل مازيوس توليوس كِيكِرو (شيشيرون) رجلاً ذكياً قادراً مثقفاً ، وكان ينحدر من أسرة متوسطة من سراة الريف الإيطالى . كان أصله من أرْبينوُم موطن ماريوس قائد الإيطاليين فى حربهم مع الأرستقراطية الرومانية ومنقذ إيطاليا من خطر الجرمان ، وكان الأربينيون ـ كغيرهم من سكان المقاطعات الإيطالية ـ ينكرون على أشراف اللاتين المتجمعين فى روما ومجلس الشيوخ دعواهم فى السيطرة والاستبداد بالأمر كله ، وكان بينهم وبين الإيطاليين صراع نستطيع أن نشبهه مثلاً بالصراع بين العرب وغير العرب فى كيان الدولة الإسلامية .

وكان شيشيرون يمثل الطبقة العاملة من الزراع والتجار فى المدن الإيطالية ، وكان لا فتأ يهاجم نبلاء الرومان ويحارب سلطانهم ، فكرهوه وألَّبوا عليه العامة من أهل روما ، وانتهى به الأمر إلى النفى من هذا البلد العظيم ، فذهب إلى بلده فى أربينوم ، وأقام هناك يجمع صفوف الإيطاليين ويستعد لخوض المعركة مع الأشراف ليقرر لأبناء طبقته حقوقهم فى

الحكم ، فلما كانت انتخابات سنة ٥٨ قبل الميلاد ارتفع إلى منصب القنصلية بمساعدة الإيطاليين ، وعاد إلى روما عودة المنصور المظفر ، وهو ينوى أن يكافح كفاح المستميت فى سبيل مبادىء الجمهورية لا يكاد يخيفه إجماع الشيوخ على كراهته ، بل لا يكاد قيصر يخيفه بجيوشه .

وكان شيشيرون من أوسع الرومان ثقافة وأذكاهم عقلاً وأفصحهم لساناً ، كان قد ذهب فى شبابه إلى أثينا ـ وكانت ما تزال موطنَ العلم والفلسفة ـ وتتلمذ فيها على أنتيوخوس العسقلانى إمام عصره فى المنطق والحكمة ، وكان سُفِسْطَائيا يتحدث فى صفاء الروح ببلاغة تأخذ بالألباب ، وقد أُخذ شيشيرون بأسلوبه فى الكلام وإن لم يؤخذ بأسلوبه فى الفلسفة ، لأن قلبه ظل معلقاً بفلسفات أفلاطون كما دعا إليها أرسطو فى اللِّيسْيُوم ، وقد تعلقت نفسه بالفلسفة تعلقاً حدا به إلى التفكير فى الانصراف إليها وتركِ السياسة وميدانها جملة ، ولكنه لم يكد يطمئن إلى الدرس حتى تسامع بمصرع سُولاَّ وما أعقب ذلك من الأحداث التى هزت كيان روما هزاً ، فقرر الرجوع إلى بلاده عجلاً .

وكان قد انصرف أثناء مقامه فى أثينا إلى شىء من الرياضة أكسبه شباباً ونشاطاً ، وكانت دروس أنتيُوخوس قد أطلقت لسانه من عقاله وجعلته خطيباً ومحدِّثا من طراز لم يسمع بمثله قبل ذلك أبداً ، حتى ليحكون أنه فى عودته إلى روما مرَّ برودس وحضر دروساً فى البلاغة على أبُولُونيوس بن مُولُون ، فلما قضى فى ذلك بعض الوقت أخذ يُحاوره ، وكان أبولونيوس لا يحسن اللاتينية ، فرجا شيشيرون أن يتحدث باليونانية ، فَقَبِل شيشيرون وأخذ يتحدث بها فى بلاغة عقدت ألسن الحاضرين ، فجعلوا يهتفون على ذلك ، إلا الأستاذ أبولونيوس ، فقد ظل واجماً برهة من الزمن ، ثم نظر إلى شيشيرون نظرة فيها حزن عميق ، وقال فى تؤدة : « إننى لأمتدحك وأعجب بك ياشيشيرون ! يا لأسفى وحسرتى على بلاد الإغريق ! لأن هذه الفنون وتلك البلاغة التى هى كل ما بقى لها من مجدها الغابر ستنتقل إلى روما عن طريقك ! » .

وعاد إلى بلاده فلم تلبث أنظار الطبقة العاملة أن اتجهت إليه ، ولم يلبث أن نهض إلى الأعمال العامة وعين حاكماً على صقلية ، فأبدى من الكفاءة فى ضبط العمال وكبح جماح السارقين والعابثين ما جعله معبود الأهلين ، وكان يبعث التقارير إلى مجلس الشيوخ ، وهو

يحسب أن أعضاء المجلس يكادون يتوثبون إعجاباً به وبأعماله . فلما انتهى العام عاد إلى روما وهو يحسب أنه سيجد الشعب فى انتظاره ليستقبله استقبال الظافر ، وأن أعضاء مجلس الشيوخ سيسارعون لتحيته وأداء حق شكره ، فلما قرب من المدينة أراح فى إقليم كمبانيا ، ولقيه هناك صاحبٌ له من أكثر الناس اتصالاً بالحياة العامة ، فسأله شيشيرون عن رأى الرومان فى أعماله ، وكان يحسب أن الرجل سيحدثه عن إعجاب الرومان به ويمضى فى ذلك ساعات لا يكاد يتوقف ! فما راعه إلا وصاحبه هذا يسأله : « وأين كنت والياً يا شيشيرون ؟ » ، وفوجىء الرجل بذلك ورانت الخيبة على نفسه ، وعرف أن تقاريره إلى مجلس الشيوخ لم يسمع بها أحد ، وأنها اختفت فى صخب روما كما يغوص حجر يلقى به فى الماء ، وامتلأت نفسه بالمرارة التى يعرفها كل من شارك فى السياسة وتعرض لعبابها المتلاطم .

وأخذ مكانه فى مجلس الشيوخ يترقب فرصة يعرِّف الناس بها قدره ، ولم تلبث الأخبار أن تواترت من صقلية بسوء حكومة حاكمها الجديد فِيرِّيس ، وكان رجلاً شريراً سارقاً عَسَف الأهلين ومضى فيهم كأسوأ ما يمضى الحكام فى الناس ، وكان آمناً مطمئناً إلى مجلس الشيوخ بفضل ما كان يملأ به أفواه الأعضاء من الألطاف والرشى ، فلما وصلت شكوى الأهلين من أفاعيله إلى ساحة المجلس أقبل يختال فى مطارف الغرور وهو لا يشك فى تبرئته. وبينا هو فى خُيلائه إذ بصوت شيشيرون يدوِّى كأنه الرعد ، فأوقف الرجل مكان المتهم ، ومضى يعدد آثامه فى بلاغة متدفقة ، وكلما دفع الرجل عن نفسه تهمة بادره شيشيرون بما هو أشد منها ، وصاغ كلامه فى أسلوب لاذع جعل الأعضاء يضحكون ، فلم تنته الجلسة إلا وقد لصق الحاكم السيىء بالأرض ، وخرج وقد حُكم عليه بغرامة قاصمة للظهر ، وخرج الأعضاء هذه المرة ولا حديث لهم فعلاً غير شيشيرون ! وهكذا أرغم الأصمَّ على السماع والنائمَ على اليقظة ، وأصبح اسم شيشيرون على كل شفة ، وسعى قيصر يخطب وده ، وبلغ أمانيه فى بضعة شهور .

* * *

ثم لم تلبث أنباء ما كان كاتيلينا يدبره أن ملأت الأسماع ، وكان شيشيرون منصرفاً منذ

حين إلى أخبار صديقه بُومبى فى آسيا الصغرى ، مشتغلاً بأخبار النصر على ضفاف البحر الأسود عن شائعات الشر المقبل على ضفاف التيبر ، فلم يلق بالا أول الأمر إلى هذا الحديث الذى بدأ يشغل أصحابه الشيوخ ويصرفهم عن بومبى وحربه مع مثرادات ، ولكنه لم يلبث أن أصغى إلى أطراف من الحديث كانت تصله لماماً عن طريق عبيده ، أو مصادفة عن سبيل أصدقائه القناصل والمراقبين والشيوخ .

وأدرك شيشرون بصادق حسه أن المسألة ليست مجرد فكرة طائشة مرت بذهن لوكيوس كاتيلينا ، وإنما هى مؤامرة خطيرة ربما قضت على روما ومجدها قضاء مبرماً ، لأن هذا الرجل الشرير العابث قد اقتنص فرصة سنحت له وألقت بين يديه بزمام جمهور أهل روما ، ذلك أن عاملاً آخر من كبار العمال وقف أمام مجلس الشيوخ ليبرىء نفسه من تهمة التبديد ، وكان هذا الرجل ـ واسمه مانِلْيوس ـ قريباً إلى قلوب العامة بسبب ما كان يفيض عليهم من المال وما كان يتيح لهم من أسباب اللهو والمسرة ، وكان العوام يودون لو برئت ساحته ليمضى فى عمله ولا ينقطع عنهم إكرامه ، لا يسألون بعد ذلك إن كان الكرم من ماله أم من مال الدولة . فلما وقف يستمع للتهمة لم يكن أقل ثقة فى البراءة من فِيرِّس ، وتواترت عليه التهم من جانب الشيوخ ، وعجب شيشيرون من ذلك الأمر ، لأن العهد بالشيوخ ألا يصل الحماس بهم لصالح الدولة هذا المبلغ ، ولم يلبث أن اكتشف أن الهجوم عليه تحامل مرجعه كراهة بومبى ، وكان بومبى صديقاً لشيشيرون ، فلم يلبث هذا أن قام فى قاعة المجلس يدافع عن الرجل ويرد عنه حملة المألبين عليه . وهاجم النبلاء هجوماً عنيفاً وانتقد أعمالهم فى كلام تردد فى آذان الجمهور تردد السحر ، ونجا مانيليوس مما كان يدبَّر له ، وانهزم الأشراف المتربعون كالآلهة على مقاعد المجلس أحفظتهم على شيشيرون ، وأثارت فى نفوسهم الحقد ، ودفعتهم إلى التحدث فى القضاء عليه والخلاص من شره جملة .

استشعر كاتيلينا أن الفرصة مناسبة ، فإن الخلاف قائم بين الشعب والأشراف ، والخصومة مستطيرة بين هؤلاء وبين شيشيرون ، وبومبى غائب بجيوشه ، وليس هناك ما يرد عابثاً جريئاً عن عبث يدبره للدولة ويفيد فى إنقاذه من هذه الظروف القائمة كلها ، ولكنه كان خائفاً من هذا الشيخ الجرىء شيشيرون ، الذى كان لا يدع مفسداً إلا وضعه موضع

الاتهام ولم يفلته إلا بالعقوبة ، وكان هو ـ أى كاتيلينا ـ رجلاً سيئاً شرِّيراً يتحدث الناس فى روما عن سوء أفاعيله وعن مظاهر إسرافه وفساد خلقه ، وكانوا يحكون أنه يشترى ضمائر الناس بما يوسع عليهم وبما يُلْطُفهم به من طرائف ما ينهب ، وكان شيشيرون يكرهه ويحتقره ، فجعل الرجل يدبر خلاص نفسه ، وهداه الفكر إلى أن يعقد الخناصر مع طائفة من المفسدين أمثاله على أن يستعينوا بالعامة والعبيد ويقلبوا الدولة قلباً ، ويضعوا أيديهم على أموالها قبل أن يعود بومبى كما قدمنا .

وبدأ فرشح نفسه للقنصلية ، ورشح لزمالته فى هذا المنصب الرفيع صديقاً له ضعيفاً يسمى جَايُوس أنطونيوس ، وقدَّر هو وأصحابه أنه إذا وصل إلى القنصلية أطلق يديه وأيديهم فى مال الدولة يفعلون به ما يشاءون ، وكان لا يشك فى أن أحداً لا يجرؤ على تحديه بعد أن طارت الشائعات بأن وراءه من العبيد آلافاً لن تتأخر عن افتراس من تحدثه نفسه بالتحدى ، ولكن شيشيرون لم يرهب شيئاً ، ودخل المعركة أمام هذا الرجل الشرير وفاز عليه فزاده ضعفاً ، وكان أنصار كاتيلينا قد أعدوا قوانين خطرة من شأنها أن تضع مال الدولة تحت يد القنصلين يفعلان فيه ما يشاءان ، وكانوا يعولون فى ذلك على وصول كاتيلينا وصاحبه إلى المنصبين الخطيرين ، واستشعر شيشيرون ذلك فمضى يخطب ويناقش حتى هدم هذه القوانين وقضى عليها قضاء مبرماً ، واطمأن إلى أن خطر هؤلاء القوم قد أبعد إلى حين .

ولقد تعلّم الرومان فى ذلك الحين عن شيشيرون دروساً كبرى : أولها أن الخطيب لا يكون بليغاً مبيناً إلا إذا تصدى لقضية عادلة ، لأن البلاغة لا تكون بلاغة إلا إذا كانت حقاً ، وأن إنساناً مهماً بلغ من الفصاحة لن يستطيع الدفاع عن قضية باطلة ؛ وثانيها أن الحق لايُغلب إذا عرف صاحبه كيف يتحدث عنه ؛ وثالثها أن الحاكم ينبغى أن يتحرى صالح الدولة فيؤيده دون أن يصرف عنايته إلى تَرضى الناس واجتذاب قلوبهم ؛ ورابعها أن الإنسان إذا اشتبك فى خصومة كان لِزَامًا عليه أن يحرص على ألا تبدر من لسانه بدوات تجرح كرامات الناس فى غير موجب .

ورأى كاتيلينا وأصحابه أن شيشيرون سيضيع عليهم الفرصة التى عقدوا عليها

أحلامهم جميعاً ، وبلغتهم الأنباء أن بومبى ـ صديق شيشيرون ـ فى طريقه إلى روما ، فلم يبق أمامهم إلا التعجيل فى إنفاذ الشر الذى دبروا ، وانضمت إليهم فلول جيش سولاّ المهزوم ، وكانوا طوائف من الشذوذ والسفاكين تفرقوا فى نواحى إيطاليا بعد هزيمة قائدهم ولبثوا ينتظرون فرصة تواتيهم لإنفاذ ما كانوا يحلمون به من السفك والنهب ، فلم يكادوا يستشعرون ميل كاتيلينا إلى مثل ذلك حتى أسرع رؤساؤهم إلى روما وعقدوا معه الخناصر ، وبات الناس فى هذا البلد العظيم يُرْجفون بهول المصائب المقبلة ، وخمدت الأنفاس وأسكت الخوف الألسن ، واحتاج الأمر إلى قلب قوى جرىء يدفع عن الناس البلاء .

هنا لم يتردد شيشيرون فى التحدى ، وذهب إلى مجلس الشيوخ ونادى كاتيلينا بأعلى صوته ، وسأله عن هذه الأراجيف التى تحوم حول اسمه ، فأجاب الرجل إجابةً لم تدع إلى الشك فى نواياه سبيلاً ، قال : « إذا رأيت جسدين أحدهما ضعيف مسلول وله رأس قوى ، والآخر ضخم قوى ولا رأس له ، فما الخطأ فى أن أنقل الرأس القوى من الجسد الضعيف إلى الجسد القوى ؟ » يريد بذلك أن مجلس الشيوخ ضعيف عاجز ولكنه يملك السلطة ، وأن الشعب قوى عظيم لا يملك منها شيئاً ، وأن علاج الأمر لا يكون إلا بنقل السلطان من مجلس الشيوخ إلى العوام . وفهم شيشيرون الخطر الذى يستتر وراء مثل هذا الكلام ، وكان أوان الانتخابات للقنصلية قد أوشك ، فآلى على نفسه أن يحول بين كاتيلينا وهذا المنصب ، وإن كلفه ذلك دَمه ، ومازال يدعو ضده ويعرض نفسه للأخطار حتى صرف الناس عنه واستقر فى القنصلية رجلان آخران مأمونان فيهما خير وثقة .

بهذا اطمأن شيشيرون برهة من الزمان من ناحية كاتيلينا وأصحابه ، ولم ينفق هذه البرهة فى انتظار وتوقع ، بل عجل بالعمل فى يقظة وحزم ، لأن المتآمرين كانوا جادين فى العمل لايكاد يصرفهم عنه شىء : كان جنودهم يتجمعون على عجل فى إتْرُوريا شمالى روما ، وكانوا يقسمون أنفسهم فرقاً لكل منها عملها ، وكان لِنتُولوس شريك كاتيلينا والمتآمر معه قد دبر خطة رهيبة للقضاء على روما وأهلها ومجلس الشيوخ خاصة ، وكان قد اختزن أسلحة وعتاداً وكبريتاً وأعدها لليلة الموعودة ، وكان يقدر أنه إذا أقبلت هذه الليلة أشعلت الحرائق دفعة واحدة فى نواحى البلد كلها ووقف نفر من المتآمرين على ضفاف التيبر يمنعون الناس من أخذ الماء لإطفاء النار ، ثم تمضى فرق من الجند إلى منازل الشيوخ

فتقتلهم واحداً واحداً مع أسرهم ، لا يبقون إلا على أولاد بومبى ، لا رحمة بهم وإنما لكى يحتفظ المتآمرون بهم رهائن لإرغام بومبى على السكوت ؛ فإذا تم هذا فقد أصبحت الدولة وخزائن مالها بيد كاتيلينا ولنتولوس وأصحابهما ، ولم يعد أحد بعد ذلك يجرؤ على رفع هامته، وانتهى ذلك الملكُ العريض إلى هذه الطغمة الباغية تفعل به ما تريد .

وانتشرت الأراجيف وسادت البلد كله رهبة مروعة ، وغدا الناس إذا ذكروا كاتيلينا لم يتحدثوا إلا حديث الهمس ، بل سعى بعضهم إلى المتآمرين يريدون أن يشتروا أنفسهم بشىء من نفاق . ولم ينقطع كاتيلينا أثناء ذلك عن حضور مجلس الشيوخ ، ولكنه كان إذا حضر أقبل مزهواً رافع الرأس يحيط به الحواشى والأتباع . وكان شيشيرون يشعر بحرج الموقف ولكنه لم يكن ليستطيع فعل شىء ، لأنه لم يكن ليملك وثيقة واحدة تثبت جريمة المتآمرين ، فتركهم وظل يتربص بهم الدوائر . واحترز هو لنفسه ، فكان لا يسير إلا فى ركب من الحراس والأعوان ، ومضى يدس العيون ويرصد الأرصاد حتى تجمعت لديه أسباب اتهام ، ثم وافاه بعض أنصاره من أمثال ماركوس كراسوس وماركوس مارسيللوس، وسيبيو متللوس برسائل تثبت جناية المتآمرين إثباتاً لا يرقى إليه الشك ، فلما استوثق مما بيده أحس أن اللحظة الحاسمة قد اقتربت ، وأنه لابد فاعل شيئاً وإلا دهمه المتآمرون فى سواد ليل . ومضى ذات يوم إلى الكابيتول وجعل يفاتح أصحابه من الشيوخ ، فوجد منهم خوفاً وإشفاقاً ، لأن الأنباء كانت قد تواترت بأن كاتيلينا وأصحابه قد أكملوا عدتهم ، وأن أياماً لن تنقضى حتى يصبح المتآمرون سادة هذا الملك الواسع وسادة الكابيتول وسادة شيشيرون !.

وعاد شيشيرون إلى داره فى المساء متعباً مكدوداً ، به من الخوف على روما أكبر مما به من الإشفاق على نفسه ، ولبث ليله يتدبر الأمر فلا يظفر بما يخرج به من ذلك البلاء المحيق ، فما حيلته أمام هذا الفتى القوى الذى أخرس الألسن ونشر الخوف ؟ وماذا تراه صانعاً إذا أقبلت جماعات الجند المتآمر ؟ أهو مصبح من غده منطلقاً إلى إتْرُوريا ليبايع كاتيلينا ويبذل له الطاعة وينجو بنفسه من الهلكة ؟ أم تراه يجمع متاعه فيرحل عن البلد حتى يأذن الله ويعود صديقه بومبى ؟ ترى كيف لقاؤه آلهة الرومان إن هو هرب هذا الهرب المعيب

وتخلى عن واجبه ساعة الخطر ؟ وكيف لقاؤه الأجدادَ لو فرَّط فى هذا التراث الذى خلفوه له وائتمنوه عليه ؟ .

فإذا كان الغدُ فقد أقبل الشيوخ يتحدثون إلى شيشيرون ويرجونه أن ينصرف عن هذا الذى يبغى من معارضة كاتيلينا ، وألا يرفع رأسه أمامه ، وبلغوه أنه قد أقسم ليأخذون أعداءه أخذ عزيز مقتدر ، وليرمينهم للسباع أو للحيتان ، ولينظمنهم فى ركابه صفاً مصفدين فى الحديد يركبهم الناس بالسخرية والمجانة ويركبهم الجلادون بالسياط .

ولكنه أبى ، وظل ساعات طويلة منطوياً على نفسه شارد الفكر لايكاد يهتدى إلى شىء ، وأيس أصحابه منه إذ استوثقوا أنه ثابت لم يثن عما عزم عليه ، وأنه لا يزال يدبر حتف نفسه ، فمضوا عنه وأخذوا خيله وعربته حتى لا يجد ما يركبه إذا هو هم بالمسير إلى الكابيتول ، وكان يسكن فى ضاحية قريبة من روما .

واقترب الليل وأقبل الخطر ، وأمر الرجل بعربته فلم يسرع الخدم بها إليه ، وافتقد خيوله فلم يظفر بها ، فلم يتردد رغم ذلك فى أن ينطلق على قدميه مشتملاً بشملته البيضاء حتى أقبل على الكابيتول فى أوائل المساء ، وكان المتآمرون يلقونه فى الطريق فلا يزيد على أن ينظر إليهم بغير اكتراث . وأقبل على صحن الكابيتول فإذا الشيوخ جالسون يحدث بعضهم بعضاً ويعزى بعضهم بعضاً ، فلما بصروا به مقبلاً أدركوا أن الرجل لم يأت لهيِّن ، وإنما هو يريد أمراً تنبىء عنه حركات يديه وتتحدث به أسارير وجهه .

لم يأخذ مكانه حيث كان ينبغى له أن يجلس ، بل مضى يدير البصر فى جوانب القاعة كمن يبحث عن شىء ، فلم يلبث بصره أن صافح كاتيلينا وسرعان ما اتجه إليه فى خطى متزنة وجنان ثابت ، وقد تسمَّر نظره فى وجه الخائن حتى ملأ بالرعب نفسه ، فإذا كان على خطوات منه فقد أخرج من شملته الأوراق التى كان أعدها ، وانطلق صوته يتردد فى جوانب القاعة منادياً الخائن باسمه ، داعياً إياه إلى الوقوف موقف المتهم .

وتناول مطارف الخائن فانتزعها عنه فجمد الدم فى عروقه ، وقد كان ـ ككل الخونة ـ جباناً هلوعَ النفس ، يكفى أن تواجهه مرة فى حزم حتى تتفرق نفسه ، ولقد كان قبل هذه اللحظة قوياً عزيزاً بجنده وصحبه ، أما وهو وحيد أمام شيشيرون الرهيب فهو أذل من جرو شَرَد عن أهله .

ثم انثنى إلى الشيوخ فإذا هم وقوف مما بهم من خوف ، فاعتلى المنبر وأنشأ يخطب خطابه الذى لا يكاد إنسان يقرؤه حتى تثور فى نفسه أعمق الإحساسات وأرفع المشاعر ، والذى يصفه بلوتارخوس بأن أوله من ذهب وآخره من نار ! وجَّه التهمة فى تؤدة وحماسة ، وأتبعها بالأسانيد فى دقة وبلاغة ، ولم يفرغ منها حتى كان الخائن قد شعر بأنه مجرم حقاً ، وأنه الآن فى قبضة الشيوخ يستطيعون أن يحاكموه ويأخذوه بجريرته ، ولم يعد له ملجأ إلا الفرار إلى جنده المتجمع فى إتْرُوريا عله يستطيع شيئاً . وملكت الحيرة أصحاب كاتيلينا فلم يستبينوا للصواب وجهاً ولا للفكر سبيلاً ، وإنما أخذهم شيشيرون بحديثه أخذاً وسحرهم بجرأته سحِراً فتسارعوا يطلبون النجاة .

ظل الرجل يتحدث ثلاث ساعات ، وختم حديثه بين هتاف الشيوخ وصياح الشعب الذى انكشف عنه الخوف وزايله الاضطراب ، والأمم يعوزها فى لحظات الخطر مثلُ هذا الصوت ، يبدد ما حولها من ضباب الشكوك ، ويخرج بها من ظلمات المخاوف ، ويجمع القلوب المتفرقة إلى لواء واحد ، والقلوب إذا اجتمعت أنس بعضها إلى بعض واستشعرت الشجاعة وتطلعت إلى العمل . فأخذ الشعب يطالب بدم الخونة ، ولكن شيشيرون وجد أن الحكمة تقضى بأن يتريث فلا يسدد ضرباته على عجل مخافة أن يروع الجند الثائر المتجمع فى إتروريا فلا يلبث أن ينثال على العاصمة انثيالا خطراً ، ثم إنه لا يملك الحق فى القبض على كاتيلينا دون محاكمة أمام محكمة خاصة ، وهو لم يفعل فى مجلس الشيوخ إلا مجرد توجيه التهمة ، وعلى المجلس بعد ذلك أن يقرر ما يشاء ، وحسب كاتيلينا مالقى الساعة ، فلن يلبث المجلس أن يوجه إليه التهمة ويدعوه إلى المحاكمة ، وقد نهض الشعب الآن واحترز لنفسه وارتدت إليه شجاعته ، ولم يعد جند المتآمرين ليستطيع أن يفجأهم على غرة .

وقام كاتيلينا يتعثر فى أذيال الخيبة ، وأخذ طريقه إلى خارج المجلس ، وأقبل الشيوخ على شيشيرون يهنئونه بما أصاب من توفيق ، ويسألونه ألا ينصرف وحيداً مخافة أن يصيبه أحد من الخونة بضر . وكان كاتيلينا قد أرصد للرجل من يقتله فيريحه منه ، ووصف له على جوانب الطريق جمعاً من القتلة متحفزين ليقضوا فيه قضاءهم .

ولكن الخناجر لم تكن لتخيف شيشيرون ، فاشتمل بشملته وخرج إلى الطريق يحيط به أصحابه وحراسه ، فلقيه المؤتمرون وجعلوا ينظرون إليه فى غضب ، فلم يكن ليزيد على أن

يبتسم ، ومضى فى طريقه فإذا المتآمرون أول الهاتفين له وأول المُكْبرين لما بذل من نفسه لقاء وطنه العزيز . لقد فتح كلام شيشيرون عيونهم على الخطر المحدق ، وبصرهم بجناية ماكانوا يدبِّرون ، وكان معظمهم سذَّجاً خدعهم ذلك الخائن التعيس بما منّاهم من خير كثير، وكانوا يسيئون الظن بمجلس الشيوخ ، يحسبون أن أعضاءه لا يجتمعون على خير للناس ، وأن الخير فى الخلاص منهم ، فلما تحدث شيشيرون انجلى الحق أمام الأعين وارتد الهدى إلى النفوس .

ومضى الرجل إلى داره فألفى الرسل قد سبقوه بأخبار الحرب فى آسيا ، وفيها أن صديقه بومبى يسأله شيئاً يذكره به فلم يجد إلا شملة كاتيلينا ، وكانت لا تزال فى يده ! فدفع بها إلى الرسل وهو يقول : « قولوا له إننا اشترينا روما بهذه ! » . وكان على حق فيما قال ، فلو لم يجرؤ شيشيرون على التقدم نحو المتآمر وينزع ثوبه الذى كان يتدثر به لما جرؤ أحد على القيام فى وجهه ، وكان قد أرعب القلوب بتدبيره كما رأينا ، فكانت هذه الخطوات التى سارها شيشيرون نحو هذا الرجل خطوات نحو الموت ، إذ لم يكن أحد ليعرف ما دبر كاتيلينا ولا ما يطوى تحت ثيابه ، وقد فجأه شيشيرون فجأة فرقت عزمه ، ثم عاجله بذلك الخطاب الذى فضح أمره ونشر على الناس صفحته السوداء ، فلم يبق حوله رجل واحد فى نفسه من النخوة جانب إلا انقلب عليه ، وصغر كاتيلينا وأصحابه فى نفوسهم ، واستيقظت حَمِية الناس ، واستعدوا للقضاء عليهم .

وهذا ما وقع : فرّ كاتيلينا إلى جنده وبعثت الحكومة إليه من حاربه حتى هزمه وقضى على من معه ، وقُبض على من بقى من أصحابه فى روما وقتلوا ، وخلص البلد من شرهم .

لقد أنقذ شيشيرون وطنه بما أبدى من الهمة والنخوة ، وقد لقبه الرومان فيما بعد بأبى الوطن ، وكان بذلك حقيقاً .